المايا

اكتشاف حضارة عريقة

موسى ديب الخوري

رئيس مجلس الإدارة

الدكتورة لبانة مشوّح وزيرة الثقافة

المدير المسؤول - المديرالعام: **الدكتور وضّاح الخطيب**

رئيــــــس التحريـــــــــــــر : **أنطوانيـــت القـــس**

الإشـــراف الطباعي: أنس الحسن

مقدمة

بعد النجاح الذي حققه علم الآثار في اكتشاف حضارات قديمة كثيرة، ومنها حضارة المايا، أصبحت هذه الحضارات مشهورة وكلنا قد سمع بها أو قرأ عنها. ولكن منذ أكثر من قرن ونصف القرن، لم يكن أحد قد سمع باسم المايا سوى حفنة صغيرة من الأخصائيين. ولم يكن أحد تقريباً يعرف شعباً من الهنود كان قد سكن، فيما مضى، أمريكا الوسطى، فأحفاد هؤلاء الهنود المتحضرين كانوا لايزالون يعيشون في غواتيمالا وفي أمريكا الوسطى عموماً. وكانوا يتكلمون لهجة مشتقة من لغتهم الأصلية. إلاّ أن وحشية الغزاة الاسبان، والسنوات الطويلة من العبودية ومن المهانة، محت كافة آثار عظمتهم وسحرهم الذي دام عبر آلاف السنين.

وكان لا بد لإعادة اكتشاف هذه الحضارة وأوابدها من شجاعة نادرة لمغامرين أوائل، قرروا سبر أدغال أمريكا الوسطى، ولعلماء تبعوهم وأزالوا النسيان عن جزء كبير من هذه الحضارة العريقة. إن حضارة المايا هي مثال على عدة حضارات تطورت في القارة الأمريكية،

مثل الأولميك والإنكا والأزتيك والتولتيك وغيرها، وطواها النسيان مع قدومٍ الحضارة الأوروبية.. ويعيد علماء الآثار اليوم جزءاً من بريق هذه الحضارات عبر عملهم الدؤوب على دراسة واكتشاف تاريخها وفنونها ومعارفها...

حضارة ضائعة في الأدغال

كانت أراضي غواتيمالا والهندوراس ويوكاتان تحفظ البرهان القاطع على عراقة شعب المايا. وكان الأهالٍي الذين يوغلون في الأدغال وفي الغابات يلمّحون أحياناً إلى وجود أوابد مختفية تحت النباتات المتعرشة المتسلقة. كان هؤلاء قد نسوا أن هذه الخرائب كانت أوابد أسلافهم، وأن الأدغال غمرتها بعد وصولٍ الاسبان. فلم يتعرّضون إذن لمسائل لم تكن تهم أحداً! ولكن من قَال إنها لا تهم أحداً؟! ففي عام ١٨٣٩ كان يوجد في نيويورك رجل يتمتع بفضول كبير. وكان هذا الفضول قد قاده للسفر والتجول في مناطق كثيرة من الكرة الأرضية، ودفعه لقراءة تحقيق حول مدن المايا المهجٍورة. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب كان كتاباً عاماً، لكنه أثار جون.ستيفنز John L. Stephens إلى أبعد

الحدود. وما انفك هذا التأثير يلحّ عليه حتى قرّر يوماً السفر إلى أمريكا الوسطى ليتحقّقَ من قراءاته. وسرعان ما أخبر صديقه بذلك فنقل إليه حماسته. كان صديقه فريدريك كاثروود Frederick Catherwood قد درس آثار العالم القديم في مناطقها نفسها. وقاما معاً باعداد المشاريع، واستعدا للسفر.

عند وصولهما إلى غواتيمالا، وجد ستيفنز وكاثروود البلاد غارقة في حرب أهلية دموية. فسارعا بالابتعاد عن أماكن القتال، واستأجرا حمالين ومرشدين هنوداً، واعتلى كل منهما بغلة، وانطلقت الحملة على طريقها باتجاه قرية كوبان Copan، في الهندوراس، على بعد بضعة كيلومترات من الحدود الغواتيمالية. وعندها فقط فهم ستيفنز لماذا لم يكن أي مسافر قد اهتم بالخرائب حتى ذلك الوقت. كانت الطريق الرئيسية التي تربط حدود الهندوراس بعاصمة غواتيمالا تجتاز غابات لا يمكن دخولها، وتمتد في ممرات جبلية وعرة وضيقة وخطرة. كانت البغال تقع أو تغوص حتى بطنها في المستنقعات، إلاّ أن المشي كان أصعب من ركوب الدواب بكثير. ذلك أن الصخور الزلقة، والجذور، والطين، والمنحدرات القاسية، كانت تجبر ستيفنز ورفيقه على

المتابعة على ظهري الدابتين المسكينتين. كان المسافران يتقدمان بصعوبة وقد أرهقا وغطاهما الطين، وكانا في كل لحظة معرضين لمغامرة وخطر جديدين. وفي إحدى المرات سقط كاثروود عن مطيته فأخذ يتذمر ساخطاً طالباً عدم أخذه معهم من جديد، وأما ستيفنز فقد عبّر عن شعوره بأن ألف نصاً لينقش على شاهدة قبرهما: «سقطا من فوق رأس البغلة، وصُرعا بجذع شجرة أكاجو[1]، ودفنا في طين جبال ميكو.»!



أهم مواقع المايا في كل من غواتيمالا وهندوراس والسلفادور والمكسيك

١-الأكاجو acajou، أو الأكاجة، شجر قاس يميل خشبه إلى الاحمرار.

وبعد أيام طويلة من مقاساة المحن، وصلا أخيراً إلى قرية كوبان، التي كان قد قيل لهما بوجود خرائب بقربها. وفي اليوم الثاني، وبعد أن أمّنا خدمات واحد فقط من الأهالي لم يجدا غيره، انطلقا عبر الأدغال بحماس جديد، إلاّ أنهما رغم هذه الروح الجديدة لم يكونا ينتظران تحقيق اكتشافات كبيرة. فالكتابات التي كانت قد شدّتهما إلى هذا المكان جعلتهما يتشكّكان؛



وكـانت التجربة قد علمتهما الاحـتراز من المبالغات الواردة فيها. ولنا أن نتخيل دهشتهما العظيمة عندما قادهما دليلهما، الذي كان يشق لهما طريقاً بضربات ساطوره بين النباتات، ليجدا نفسهما أمام صرح كان يتجاوز أكثر آمالهما طموحاً! كان عبارة عن منحوتة ضخمة من الحجر تمثل رجلاً يسند ظهره على بلاطة. وكان هذا الشخص يرتدي ثوباً أيضاً... ثوب غريب بقدر ما هو غني، مع هيروغليفيات تغطي الواجهات المكشوفة من البلاطة. ومما لاشك فيه أن هذا لم يكن من صنع شعب بدائي.

كان فنا خالصاً، فناً عظيماً، فناً أنوفاً ونبيلاً. ولم يكن ستيفنز وكاثروود قد أبصرا في حياتهما مثيلاً له. وأخذا يشقان طريقهما نحو آبدة أخرى وهما مسحوران ويكادان أن يحطما عظامهما وهما يتعثران من شدّة لهفتهما، وما أن بلغاها حتى أشار لهما الدليل إلى آبدة أخرى! لكن الأدغال لم تكن قد احترمت أبداً هذه الأوابد. وكانت النباتات المتسلقة قد اجتاحت مع الأسف كل شيء وبدون شفقة!

وكانت بعض الجذور القوية قد قلبت منحوتات رائعة، بينما أحاطت الأغصان القوية بمنحوتات أخرى

ولفّتها ورفعتها عن سطح الأرض أو امتزجت بشكل مبهم بنباتات متسلقة ضخمة! وبعد أن عاينا بإعجاب أربع عشرة منحوتة من هذا النوع، التفت ستيفنز وكاثروود نحو صرح هرمي ضخم كان يبرز من بين الأشجار. وانطلقا يصعدان درجاته بعناء، ويجتازان مصطبة، وينزلان درجاً، ويصعدان آخر، ليصلا أخيراً إلى مشرفة واسعة على ارتفاع ثلاثين متراً، وهناك انهارا من التعب والانهاك.



مشهد لموقع كوبان بعد أن تمت إزالة النباتات عنه

كانا بحاجة إلى السكينة والتأمل لحل هذا اللغز الذي اجتهدا في سبره دون جدوى. فبحسب المؤرخين كان «المتوحشون» هم وحدهم الذين أعمروا القارة الأمريكية، لكن الاكتشاف الذي كانا قد حقّقاه لتوّهما كان يثبت العكس بشكل قاطع. كانت المدينة المهجورة تمتدّ أمامهما «مثل حطام سفينة وسط المحيط، وقد تحطّمت صواريها، وامّحى اسمها، وضاع ملاحوها، وليس ثمة أحد ليفسر من أين جاءت، ومن كان حاكمها وإلى أي عصر ترجع، وما كانت أسباب دمارها. وكانت بعض التزيينات المبتكرة تسمح برؤية آثار من عالم ربما ضاع إلى الأبد». ترى هل كانا موجودين على قمة قلعة حيث كان هذا الشعب المجهول يطلق أبواق الحرب، أو على قمة معبد مكرس لإله السلام؟ لم يكونا ليعرفا أية إجابة على هذه الأسئلة أكثر مما كانت تعرف مجموعة القرود الجاثمة على قمم أشجار البقم الهندي! «كل شيء، كان سراً.. سرٌّ غامض لا يمكن سبره، وكان كل تفصيل إضافي يزيده عمقاً» كما كتب ستيفنز فيما بعد.

والتزم ستيفنز وكاثروود بنشر خبر اكتشافهما، إذ كانا الوحيدين تقريباً اللذين يعرفان هذه الآثار. وكان

يتعين عليهما من أجل ذلك، ومهما غلت التضحية وأثر ذلك على صحتهما، أن يظلاّ في قلب هذا الدغل المليء بالحمّى لكي «يسحبا من النسيان هذه الشواهد العملاقة لشعب مجهول». ولكن كيف يتصرفان، ومن أين يبدآن؟ لاشك أن هذه الغابة الكثيفة كانت تخفي مدناً أخرى مجهولة تماماً، ولم يكن بامكانهما استكشاف كل شيء... كان عليهما قبل كل شيء التخلّص من هذه النباتات الكثيفة التي لا يمكن اختراقها، وما كان ذلك ليتم إلاّ بحرق كل شيء وهو أمر لا يمكن التفكير فيه. إلاّ أن ما كان موجوداً في متناول أيديهم كان يقدم لهما حقلاً واسعاً للعمل. وكان على كاثروود أن يرسم المنحوتات قبل كل شيء.

لم يكن ذلك سهلاً حتى بالنسبة لهذا الفنان الرفيع الموهبة. وكان تعقيد الأشكال المختلفة تماماً عما كان كاثروود قد سنحت له الفرصة برسمه، يتطلب منه صبراً فائقاً وجهوداً جبارة في التركيز. ومن جهة أخرى، وفي عتمة وظلال هذه النباتات الكثيفة، لم تكن التفاصيل تبدو واضحة. وكان يجب قطع كافة الأشجار المحيطة بالقطعة الحجرية للحصول على النور الضروري. والعقبة الجديدة التي ظهرت هنا هي

أن الهنود لم يكونوا يعرفون الفأس. ولم يكن لديهم سوى الساطور، وهو عبارة عن سكين مطبخ كبيرة، وكان كافياً لتقطيع العرائش والأغصان. أما تقطيع الجذوع الضخمة بواسطة هذه الأداة فكان عملاً يتطلب نفساً طويلاً. وهكذا أوكلا للهنود هذا العمل الصعب بقطع الجذوع بالساطور، وانتظرا حتى أمكن تحرير فسحة من الضوء حول المنحوتات. وعندها بدأ كاثروود العمل في ضوء مناسب، في حين كان ستيفنز يعمل على تحرير أوابد جديدة.



كتب ستيفنز فيما بعد: «يستحيل أن أعبّر عن الاهتمام الذي استولى عليّ باستكشاف هذه الخرائب. كان حقلاً جديداً تماماً. ولم يكن ثمة كتاب وجيز أو مرجع نلجأ إليه، ولا أدلاء نستمع إليهم. ولم نكن نستطيع الرؤية أبعد من ستة أمتار أمامنا، ولا أن نحزر أية مفاجأة جديدة تنتظرنا. وكنا نحرّر آبدة من العرائش التي كانت قد اجتاحتها، أو كنا نحفر لنبش قطعة من منحوتة كانت تظهر على سطح الأرض. وكنت أميل على القطعة بلهفة لكي أستطيع تبين عين أو أذن أو قدم، وعندما كانت السواطير تضرب الحجر كنت أدفع العمال وأسحب بيدي الحجر الرطب. كان جمال هذا الغنى، والصمت الاحتفالي للغابة تقطعه صراعات القرود ومشاغبات الببغاوات، والبعد عن المدينة والغموض الذي كان ينشأ عن هذه العزلة، ذلك كله كان يخلق جواً أكثر عظمة وروعة بكثير من تنقيبات علماء الآثار في مناطق العالم القديم». وما كانت الصعوبات ولا المرض ولا سوء التغذية ولا الحرارة ولا الرطوبة ولا الطين ولا الحشرات (كان كاثروود يضطر لارتداء قفازين للاحتماء من الحشرات أثناء الرسم)، وباختصار غياب أسباب الراحة المادية تماماً،

لتثنيهما عن هدفهما. كانا يدوّنان ويضعان المخططات والنبذات الاجمالية بلا كلل. وعندما ظهر بعد عامين كتابهما «مغامرات رحلة إلى أمريكا الوسطى، شياباس ويوكاتان» في الصحف، لم يكن يقدم فقط سرداً لكل ما كان الرجلان قد رأياه، بل وبشكل خاص مجموعة هامة جداً من المخططات المصوَّرة.

وعرف الجمهور وقد أخذته الدهشة أن أمريكا هي أيضاً يمكن أن تزدهي بماض عريق وبثقافة رفيعة. كانت القارة الأمريكية قد شهدت، مثل أوروبا وآسيا وأفريقيا، ازدهار ورقي شعب فنان، قادر على بناء المعابد والقصور، وعلى رسم ونحت الأوابد بأشكال دقيقة، شعب مفكر قادر على وضع كتابة هيروغليفية دقيقة. وأصبح كتاب ستيفنز أروج كتب تلك الفترة. ونشرت منه طبعات عديدة.

وسرعان ما أثيرت نقاشات حامية وعنيدة حول موضوع شعب «المايا» الذين كانت تسند إليهم هذه الحضارة المتفوقة. وزعم بعضهم أن الهنود ما كانوا يستطيعون التطور حتى هذه الدرجة لوحدهم. ولاشك أنهم كانوا قد اتصلوا بشكل ما مع العالم القديم. وربما كانوا قد عرفوا المصريين، طالما أن المصريين كانوا هم

أيضاً يبنون الأهرامات... وربما مع الهند، طالما أن بعض الأشكال المنحوتة بدت وكأنها تمثل فيلة. وطرحت أكثر الفرضيات خيالية وابتكاراً. ومنها بشكل خاص أن القرطاجيين والفينيقيين والفايكنغ، لا بل وسكان المحيط الهادىء، كانوا على اتصال بشعب المايا.

إلاّ أن العلماء الأجدر بالثقة تمسّكوا على الرغم من هذه الفرضيات كلها بالفكرة التالية: إن لدى القارة الأمريكية كل الأسباب لتعتقد بأنها أنتجت حضارة أصيلة. وحتى إذا كان من الممكن أن تكون بعض المراكب البولينيزية (من جزيرة بولينيزيا في المحيط الهادئ) قد بلغت الشواطىء الأمريكية، إلاّ أن أقلية بسيطة كهذه ما كانت لتستطيع تحويل الهنود المتوحّشين إلى هذا الحدّ من التطوّر الذي يتطلّب تاريخاً طويلاً من العمل والتراكم الفني والثقافي الخاص بهذه الشعوب.

وكانت المرحلة الثانية تتعلق بضرورة تفسير الهوّة الثقافية الشاسعة التي كانت تفصل المايا عن الهنود الآخرين. فإذا كان ما يقوله البحاثة صحيحاً، وهو أن جميع السكان الأمريكيين يرجعون إلى أصل آسيوي، وأنهم كانوا قد بلغوا الألاسكا شمالي القارة الأمريكية عبر الجزر المتجمدة قبل نحو عشرين ألف

سنة، فإن الهنود الذين نزلوا باتجاه الجنوب كانوا في مستوى واحد من التطور، وكانوا يعرفون النار وينحتون الحجارة. فلماذا إذن تفوق المايا على الآخرين، وكيف حدث ذلك؟

وتراكمت الأسئلة بانتظار أجوبة عليها. واستطاع أخيراً علماء الأمريكيات وضع بعض النقاط الأساسية الثابتة. فبالدرجة الأولى، لم يمتدّ الهنود كلهم في أمريكا دفعة واحدة. وكانوا قد وصلوا على دفعات صغيرة عبر موجات متلاحقة، على امتداد فترة زمنية طويلة. وفي الحقيقة، لم يكن الواصلون الأوائل يعرفون سوى النار والحجر المنحوت. ثم جاء مهاجرون جدد أدخلوا تقنيات جديدة، كالأدوات المشغولة من الحجر المصقول، والقوس والسهام للصيد، وتدجين الكلاب. أما فيما يتعلق بالمايا الأوائل، فإننا لا نعرف شيئاً عنهم، لكن الزراعة سمحت لهم دون شك بالتفوق على القبائل الأخرى. فالهنود الذين كانوا يعيشون على الصيد فقط لم يكن بامكانهم خلق حضارة متطورة. ولم يكن ثمة أية حاجة تدفع الصياد لبناء منزل دائم، ولتزيينه، وهو الذي يلاحق الطرائد باستمرارٍ في كل فصل إلى أماكن أبعد. والفن لا يجد أرضاً خصبة

وملائمة لازدهاره إلاّ عندما يستقر شعب ما ويبني المدن ويبقى مستقراً في الموقع نفسه لعدة أجيال، وذلك بالطبع بقدر ما يستطيع الناس تأمين غذائهم. وتلكم بالضبط كانت حال المايا. فالذرة البرية المكسيكية، أو التيوسينت Teosinte، أي الذرة المقدسة، وفّرت لهم وسائل الاستمرار التي ارتكزت عليها أسس حضارتهم المتفوقة.

ومع ذلك، فإن هذه الفرضية لم تكن تتوافق مع ميثولوجيا أحفاد المايا. فبحسب أسطورتهم الأثيرة، ومنذ عهود أسلافهم القديمة، كانت مراكب يقودها رجال بيض قد رست على شواطئهم. وكانت هياكل السفن تلمع تحت ضوء الشمس وتنزلق بخفة على الأمواج كالثعابين الضخمة، وقد هبّ الأهالي لملاقاتها. وكان رجال المراكب كباراً، وجميلين، وذوي عيون زرقاء ويرتدون ثياباً غريبة. وكانوا يزيّنون جباههم بشعار يشبه الثعابين المجدولة. وكان الثعبان المقدس أحد أهم آلهة المايا. وهكذا، فقد اعتقدوا عند رؤيتهم لهؤلاء الرجال المدهشين، والمتوّجين بالثعابين والذين وصلوا على مراكب على شكل ثعابين، أنهم يرون أولاد إلههم الثعبان المقدس. وهكذا استقبلوهم بموكب كبير

كمرسلين من الإله، واستقر هؤلاء الشانيس، كما كانوا يُدعون، إلى جانب المايا وأخذوا يعلمونهم أشياء كثيرة. وقد استُخدمت هذه الأسطورة، وهي لاتزال تستخدم، كحجة من قبل المتمسكين باتصال خارجي كان السبب في بزوغ حضارة المايا. فالمسألة التي طرحها اكتشاف ستيفنز لم تُحلّ حتى اليوم. وإذا كان معظم علماء الأمريكيات يدافعون حالياً عن أصالة حضارة المايا وسحرها، لكن بعض المخالفين لهذا الرأي يعيدون بين الحين والآخر طرح المسألة على بساط البحث مع بعض الحجج، كهذه مثلاً: «هل تعلمون أنه يوجد في خليج كامبش شاطئ كان المايا يسمونه تاموانشان، أي «الموضع الذي نزل فيه الرجال الثعابين»؟...

أسرار الأدغال

كان ستيفنز وكاثروود قد افتتحا الطريق. لكن اكتشافهما لم يحرّض أية منافسة بين علماء الآثار. فدون البحث عن خرائب المايا كانت تكمن صعوبات كثيرة، وكان علم الآثار في قلب الأدغال يتطلب بطولة استثنائية. حتى أن الباحثين الذين كانوا يرغبون بدراسة هيروغليفيات المايا يئسوا من إيجاد حل حتى

على المدى البعيد. إذ كيف يفكون رموزها دون نسخ دقيق لأشكالها؟ وعندما توغّل أخيراً ألفريد مودسلاي Alfred Maudslay في الأدغال لعدة مرات، بعد اثنين وأربعين عاماً من ستيفنز، وجلب معه ليس فقط صوراً ورسمات لكل آبدة معروفة، بل وقوالب عديدة أيضاً لنقوش كثيرة بل وحتى لأوابد كاملة، فقد رفعه المعجبون الأقل شجاعة بفن المايا إلى أوج البطولة. وفي تلك الآونة تماماً حدث اكتشاف هام أيقظ الاهتمام العام، إذ وُجد مفتاح بعض الهيروغليفيات.

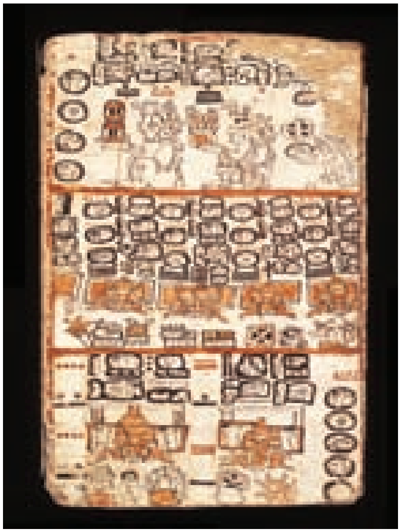


نموذج من هيروغليفيات المايا

ففي حين كانت حرب النظريات في أوجها حول كيفية فك رموز هذه الكتابة، لم يكن يخطر ببال أحد أن مفتاح فك رموز كتابة المايا كان يرقد في غبار أرشيف الأكاديمية الملكية للتاريخ في مدريد.

وقد «نبشه» في عام ١٨٦٣ براسور دو بوربورغ أحد البحاثة في هذا المجال. وكان عبارة عن كتاب قديم تفوح منه رائحة العفونة، ويرجع إلى عهد الغزو الاسباني، ويبدو أنه لم يفتح أبداً منذ ذلك الحين. وبين ليلة وضحاها بات للخربشات التي كانت تزينه قيمة فائقة حتى وضعت في علب زجاجية خاصة لحمايتها. كان عنوان الكتاب حكاية الأشياء في يوكاتان، وكان مؤلفه شخص يدعى دييغو دو لاندا Diego de Landa، وهو الأسقف الأسباني الثاني في يوكاتان. وكان هذا الكاهن هو الذي أمر في صباح أحد أيام تموز من عام ١٥٦٢ بحرق كافة كتب المايا (لأنها من أعمال الشيطان!) في الساحة العامة لكي تختفي ثقافتهم بشكل كامل. كان هذا العمل من أبشع ما يمكن لأحد القيام به حيث لم يكن يقل إجراماً عن أعمال الاستعباد التي كانت تتم لشعب المايا في ذلك الحين. إلاّ أن هذا المخرّب البائس كان يهتم بشكل خاص بالعلوم القديمة. وقد أصبح

الصديق الحميم للملك كوكوم المعزول عن عرشه، «وهو رجل ذائع الصيت وذكي وحكيم ومثقف»، وعمل على أن يأخذ عنه الجزء الأعظم من معارفه. بل إنه سمح لكوكوم بالاحتفاظ بأحدٍ كتبه الشيطانية، وذلك لكي يتمكنا من دراسته معاً.



وكان دولاندا قد جمع أيضاً معلومات هامة من ابن أحد أكبر كهنة المايا. وقد ضمّن كافة هذه الوثائق في حكايته، وأكملها بنبذات اجمالية عن هيروغليفيات العشرين يوماً من الدورة الشهرية والثمانية عشر شهراً من سنة المايا.

أي اكتشاف عظيم كان اكتشاف هذه الرسمات! لقد كانت تساوي ذهب مكسيكو كله الذي سرقه الاسبان. ولكم بارك الباحثون (رغم كل شيء!) أسقف يوكاتان هذا عندما بدأوا يتأملون المفتاح الذي كان سيفتح لهم سرّ المايا! لكنهم في الوقت نفسه كانوا يحتقرونه لأنه كان مسؤولاً عن تدمير عدد هائل من الكتب الثمينة، وعن إنهاء ثقافة كاملة. ومن حسن الحظ أن بعض هذه الكتب كان قد أفلت من هذه «المحرقة»، إذ اكتشفت فيما بعد ثلاثة كتب للمايا كان قد حملها إلى أوروبا جنود اسبان على الأرجح. وقد ماثلها العلماء إثر اكتشافها برسمات لاندا، ثم عملوا على إقامة صلات بين هذه الكتب المختلفة والنقوش على الحجارة. وفي هذه المرة أيضاً انتصر الذكاء الباحث على اللغز. وبدأت الأوابد تتكلم. وإن هي لم تكشف عن سرّها كاملاً (حتى اليوم لم يتمكن العلماء من فكّ رموز سوى ٤٠٪ من اشاراتها)، لكن مغزى ما كشف كان أساسياً. فقد سمح بتحديد تاريخ نصب مسلات وأبنية المايا ووضع تسلسل زمني لأهم المراحل التاريخية في هذه الحضارة.

وعندما استطاع علماء الآثار أخيراً التغلب على قلة انسجامهم مع الأدغال، وبدأوا ببعث عالم المايا بشكل

منهجي، اكتشفوا أن المايا كانوا خلال ما يقارب ١٥٠٠ عام قد نصبوا بانتظام فائق مسلة كل عشرين عاماً، وأحياناً كل خمسة أعوام أو عشرة أعوام في بعض المراكز الهامة. وسمح هذا الأمر الفائق الأهمية بتقدير تاريخ تأسيس مختلف المدن بشكل دقيق، وتاريخ هجرانها، حتى الوقت الذي أصبحت امبراطورية المايا القديمة فريسة للعرائش وللغابات العذراء. وجمع علماء الأمريكيات بهذه الوسيلة وبصبر بالغ، آبدة بعد آبدة وتاريخاً بعد تاريخ، تاريخ المايا الذي بدأ كسلسلة عجيبة من البناء ومن الهجران.



رسم تخطيطي لإحدى المسلات من كافة جوانبها

في السنة الموافقة لعام ٣٢٧ ميلادية، رفع المايا مسلة مؤرخة في أواكساكتن Uaxactun . وبعد ذلك بقليل أرسلوا مجموعة منهم إلى مكان يبعد عنها ٣٥كلم لتأسيس تيكال Tikal . وبعد قرن من ذلك انطلق مستكشفون آخرون باتجاه كوبان والتي تحمل أقدم مسلة فيها تاريخ عام ٤٧٠ ، وهكذا ظهرت المدن بالتتالي، فشيدت بالنك Palenque عام ٦٤٢ وكيريغا Quirigua عام ٧٠٦ . ولكن بعد فترة معينة، كان المايا يهجرون بالتدريج هذه المدن، ففقدت بسرعة أهميتها كلها حتى بات من غير المجدي نصب المسلات فيها . وتحمل آخر مسلة في بالنك تاريخ عام ٧٨٥، وفي كوبان تاريخ عام ٨٠٥، وفي كيريغا عام ٨١٠، وفي تيكال عام ٨٧٤، وفي أواكساكتن عام ٨٨٩. وبعد عام ٩٠٩ (وهو آخر تاريخ اكتشف حتى اليوم بالنسبة للامبراطورية القديمة) كان جميع السكان قد تركوا أراضي الامبراطورية القديمة (والتي تمتد في جنوب غواتيمالا)، مخلفين وراءهم انجازات ثقافة عالية على امتداد قرون كثيرة. وقد هاجر جميع سكان هذه المزارع والقصور والمعابد باعداد ضخمة نحو الشمال، حيث كانت قد سبقتهم إليها بعض مجموعات المغامرين. واستقروا في يوكاتان، وهو بلد أقل خصوبة

ويخلو من مجاري المياه، ليشيدوا امبراطوريتهم الجديدة نحو عام ٩٨٧ على بعد مئات الكيلومترات من نقطة انطلاقهم.



مشهد عام لمركز مدينة بالنك ويظهر فيها الهرم والبرج المرصد المربع الشكل

ومع تتابع ثبوت هذا الماضي الذي لا يصدَّق، كان علماء الآثار يتساءلون عن أسباب هذه الهجرات المتلاحقة. أكانت الديانة أم خرافة ما، هي التي دفعت المايا للهجرة؟ أم كان تغير مفاجئ للمناخ هو الذي جعل أراضي الامبراطورية القديمة غير قابلة للسكن؟ أم ترى أن حشرة كانت قد اجتاحت المحاصيل؟ أم وباء فتك بالسكان؟ تقول الفرضية الأكثر قبولاً إن نظام الزراعة عند المايا هو الذي كان يجبرهم على هذه الانتقالات المستمرة، حتى الهجرة العظمى الأخيرة. ذلك أنهم كانوا دون شك يستنفذون امكانيات الأرض. فلقد كانوا يزرعون كما لايزال يزرع أحفادهم الحاليون وفق طريقة حرق الأراضي، فيقطعون الأشجار ويحرقون النباتات المتسلقة والأعشاب الضارة في حقلهم ثم يبذرون بذارهم. وكانوا في السنة التالية يتركون الأرض لترتاح بين سنتين وسبع سنين لكي تستطيع الجنبات والشجيرات النمو من جديد لتستخدم كسماد. وفي أثناء ذلك كانوا يزرعون أراضي جديدة جهزت بالطريقة نفسها.

لكنّهم بتطبيق هذا النمط من الزراعة بالحرق، كانوا يدمّرون التربة العضوية المخصبة، بحيث كان يلزم

الأرض أن ترتاح مدة أطول في كل مرة، حتى الاستنفاذ النهائي للأرض التي لا تنتج بعد ذلك سوى الأعشاب الضارة. وكان هذا الوضع يجبر السكان على الابتعاد أكثر فأكثر عن المراكز المدنية حتى يصبح ثقل الذهاب والأياب بأحمالهم مرهقاً جداً، فالمايا لم يعرفوا «العجلة» أو الدولاب، وبالتالي عربة النقل! وكما يحصل دائماً في الفترات الصعبة، ينطلق أكثر الناس جوعاً وقدرة على المغامرة بحثاً عن أراضي جديدة. وهكذا اكتشفوا يوكاتان، وانتشر الخبر، وسلك آخرون الطريق نفسه، تاركين خلفهم مدنهم التي أطبقت عليها الأدغال!

سحر الامبراطورية القديمة

كتب أحد علماء الآثار الذين عملوا على اكتشاف حضارة المايا: «لم نأت لانقاذ هذه الأبنية المنحوتة وهذه المسلات وهذه الأهرامات، بقدر ما جئنا من أجل الفنانين المنسيين الذين أبدعوها . ويجب استخدام هذه الحجارة كوسيلة في عملنا، الذي يهدف قبل كل شيء إلى إعادة بناء حضارة المايا».

ومع تقدم العمل أولاً بأول، وعلى الرغم من الجذور الضخمة والنباتات المتسلقة والحرارة والحشرات والحمّى والثعابين، كان هؤلاء العلماء يعملون على رد الحياة لكل آبدة، وعلى إجلاء شكلها ومعناها العميق. فإذا أخذنا مثلاً المنحوتات التي كانت توجد في معظم صروح الامبراطورية القديمة، فإنها لم تكن تعني للعلماء أن المايا كانوا يعدون بين فناني الدرجة الأولى وحسب، بل وأنهم كانوا يخضعون عدداً كبيراً من السكان للعبودية. ذلك أنهم لم يكونوا مزودين بأدوات معدنية، وبالتالي كان يلزمهم آلاف الحرفيين لانجاز زخرفة كافة هذه الواجهات والسواكف والعوارض والهياكل والمسلات، والتي كانت تمتزج فيها الأشكال البشرية والحيوانية والهندسية، باستخدام أدوات حجرية فقط. وهكذا فقد أمضى آلاف العمال أيضاً حياتهم في نحت ورفع وصقل الحجارة. ومن المرجّح أنه بين فترتي البذار والحصاد، وعندما لم تكن الحقول تتطلب انتباهاً كبيراً، كانت اليد العاملة بالزراعة تشارك ببناء المعابد والأهرامات. وربما كان شعب كامل قد رزح وخضع للملوك أو للكهنة، كما في مصر في زمان مجد الفراعنة!

كان مخطط المدن يبرز، على الرغم من الاختلافات والتنوعات المحلية، شكلاً مشتركاً في مدن المايا كلها، ويتمثل هذا الشكل في تسلّط أقلية قوية على الأكثرية العامة البائسة. وكانت معابد ومساكن الكهنة والنبلاء الحاكمين تشكل نواةٍ ما يمكننا تسميته بالحي النبيل، في حين تمتدّ بعيداً خلف المساكن الفخمة عشرات آلاف الأكواخ الصغيرة بسقوفها من سعف النخل، أو «الأكواخ الشعبية القذرة». وللوهلة الأولى، كان جوهر المدينة عند المايا يبدو بسيطاً جداً. ولكن عندما درسها علماء الآثار عن قرب أكثر، أدركوا الدقة المتناهية لهذه المخططات. ولاحظوا قبل كل شيء الواقع الذي كانت تؤدي إليه تشكيلات المباني. كانت أكواخ عامة الناس منخفضة، في حين كانت القلة الحاكمة تبني المعابد والقصور على الهضاب. ولهذا كانوا يمهّدون قمة التلال الطبيعية، أو كانوا يبنون قمماً اصطناعية من حجارة الرصف، المليّسة بعناية بالملاط، بحيث كانت كل تلة تُستخدم بشكل عام كقاعدة لعدة معابد متتالية. ويبدو أن هذه الأبنية كانت توحي بالخضوع والخشوع للفلاحين الطيبين. فرجل المايا الفقير، الذي كان يرتدي وزرة المزارعين، لم يكن ليستطيع ألاّ

يُعجب بهذه النخبة المدهشة، الساكنة على المرتفعات في قصور من الحجر المنحوت. وكان هؤلاء الأسياد بدثاراتهم الواسعة وبمجوهراتهم الثمينة وبعمائرهم من ريش الكتزال[١]، يبدون له أقرب للآلهة منهم للبشر الفانين.



المركز الرئيسي في مدينة تيكال حيث مقر اللجنة الحاكمة

١-طير مكسيكي ذو ريش أحمر وأخضر رائع، ويدعى كوروكور Co-roucore في غواتيمالا.

كان الكهنة يحيطون أنفسهم بهالة من الأبهة والطقوس والشعائر (كما تثبت ذلك منحوتات كثيرة)، وكانوا يمارسون السحر ليزيدوا من هيبتهم. وكانوا يعرفون أدوار الشمس والقمر والنجوم. وقد وضعوا تقويمين شبه كاملين (يتفوقان بشكل جلي على كافة تقاويم العالم القديم المعاصرة لهم، بل إن تقويم المايا الذي يعتمد على كوكب الزهرة كان من الدقة بحيث لم يكن يحتاج إلى التعديل سوى يومين كل ستة آلاف عام). يتألف التقويم الأول، وهو شمسي دنيوي، من ثمانية عشر شهراً، وكل شهر من عشرين يوماً إضافة إلى خمسة أيام، أي ما يساوي ٣٦٥ يوماً. أما التقويم الثاني فتقويم قمري مقدس، مقسّم إلى ثلاثة عشر شهراً، وكل شهر إلى عشرين يوماً، أي ما يساوي ٢٦٠ يوماً. وكان هذان التقويمان يتوافقان بدقة فيما بينهما، بحيث تتوافق أيامهما كل ٥٢ عاماً. وكانت معارف هؤلاء الكهنة ـ الفلكيين تبلغ مستوى رفيعاً فتتنبأ بالكسوف وبالخسوف، مما كان يعطيهم نفوذاً عظيماً في نظر الشعب.

كان كهنة المايا يحتفظون لأنفسهم بمعارفهم الفلكية بمعزل عن شعبهم تماماً. وقد ظهر ارتباط المعارف

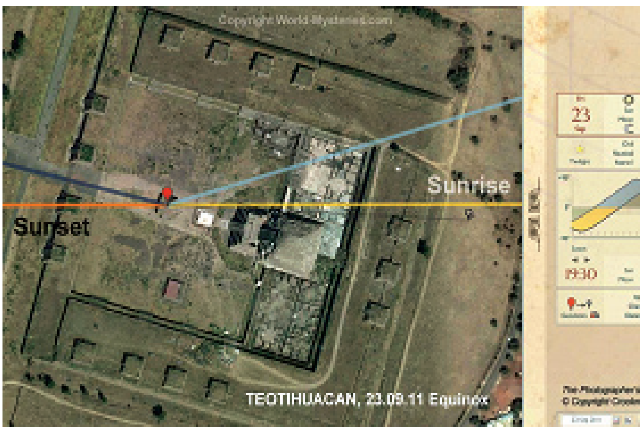
الفلكية ببناء المعابد عندما نبش أوليفييه ريكتسون عام ١٩٢٨ أحد اهرامات أواكساكتن.



مرصد الكراكول الشهير، من فترة المايا المتأخرة (تولتيك - مايا)

فبين آثار مدينة المايا القديمة هذه، كانت ترتفع تلة نحو سبعة عشر متراً مقابل ثلاثة معابد متراصفة تماماً. ولم تكن قمتها الشديدة الانحدار، على الرغم من انتهائها بسطح مستوى مجصص، لتشكل قاعدة لمعبد كبير من الحجارة، إنما بالأحرى لكوخ خشبي.

ترى هل كانت تقدَّم هناك في الأعلى تضحيات بشرية؟ دون شك، فذلك كان يتم حقاً! إلاّ أن ريكتسون كان يهتم بجانب آخر من المسألة. فعندما كان يحرر الهرم، لم يكن ينفك يتساءل عن العلاقات التي يمكن أن تربطه بالمعابد الثلاثة الأخرى. وكان قد انجذب بقوة منذ عام ١٩٢٤، عندما كان يعمل في حملة تنقيبات نظمتها مؤسسة كارنيجي في أواكساكتن، إلى نظرية طرحها فرانز بلوم قائد الحملة. وكان هذا الأخير يعتقد بأن لهذه الوضعية هدفاً محدداً تماماً، وهو ربط المسار الشمسي بفترات الانقلابين والاعتدالين، أي الأيام التي تفصل بين الفصول الأربعة للسنة الشمسية. وقرر ريكتسون تعميق المسألة.



أحد البرامج الحديثة على الحاسب لمتابعة وإثبات صحة الدور الفلكي للعديد من صروح الماي، كما في تيوتهواكان هنا

كان قد لاحظ مسلة موضوعة على دكة منخفضة، مقابل الهرم. فوضع على الخط المركزي لهذه المسلة مزولة، وهي جهاز لقياس الزوايا والأبعاد، وسدد موجهاتها نحو منتصف عتبة الأبواب الداخلية للمعابد. وبعد أن دوّن الزوايا حصل على نتائج حاسمة. فالمسلة كانت تتبع مع الهرم والمعابد مخططاً محدداً بحيث كانت خطوطه الموجّهة تشكل ساعة شمسية كبيرة.

لقد عرف علماء الفلك المايا أن الشمس لا تشرق ولا تغيب في المكان نفسه دائماً، وكانوا قد بنوا معابدهم وفق معرفتهم هذه. فكانت الشمس ترتفع من خلف زاوية الواجهة الشمالية للمعبد الأول عند الانقلاب الصيفي في ٢١ حزيران، وعندما كانت تظهر خلف زاوية الواجهة الجنوبية للمعبد الثالث، كانت تشير إلى الانقلاب الشتوي في ٢١ كانون الأول. وعندما كانت ترتفع تماماً خلف مركز المعبد الثاني كان يحل الاعتدال الخريفي أو الاعتدال الربيعي في ٢٢أيلول أو في ٢١ آذار.

ولكن ما هو السبب الذي جعل الكهنة يهتمّون ببناء هذه الساعة الشمسية الضخمة؟ إن حياة المايا لم تكن تتطلب تواريخاً دقيقة. وكانوا يعيشون على الزراعة،

وكانت تكفيهم معرفة عامة بأوقات البذار والحصاد. إلاّ أن كهنتهم كانوا يستخدمون الساعة الشمسية لتحديد طقوس الاحتفالات الزراعية، والتي لا يمكن ترك تواريخها للصدف. وكانوا يعدّون مشهداً باذخاً واحتفالياً، وفي نهايته كانوا يصعدون إلى قمة الهرم حيث يقدمون بالتأكيد بعض التضحيات البشرية، ويعطون الأمر باسم الآلهة ببدء البذار أو الحصاد.

ولما حل ريكتسون هذه المسألة، استطاع أيضاً النفاذ إلى سرّ الهرم نفسه. وكان يشعر منذ بداية الأعمال بأنه كان يخفي سراً ما. فقرّر أخيراً أن يحفر إحدى زواياه بعناية فائقة، وعندها لاحظ أنها كانت تغطي زاوية ثانية. كانت حالة الزاوية الأولى رديئة جداً، فلم يضحي بشيء كثير إذ دمّرها في سبيل تحرير الزاوية الثانية والتي كانت لحسن الحظ محفوظة بشكل جيد. كانت تتألف من جذوع هرمية متوضعة فوق بعضها بعضاً، بحيث يحدد كل منها سطحاً مستوياً. وكان أول سطح منها محاطاً من جهاته الأربع بأربعة أدراج، في حين أحيطت الباقية عند الواجهة فقط. وكان ثمانية عشر قناعاً لنمور أمريكية من الحجر مغطاة بالجص تزين الأدراج من على الجانبين. وكان محيط رأس

هذه السنوريات يصل إلى مترين ونصف المتر، وكانت أشداقها المتوحشة تكشر عن أنياب معقوفة ضخمة.

ويميز هرم أواكساكتن القديم، مثل الأهرامات الأحدث، إحدى الظاهرات الفلكية، والتي كانت تهب الكهنة قدرة فوق طبيعية بالنسبة للعامة. وتلخص هذه التعابير الأربعة، الأبهة والاحتفالات والطقوس والعلم السحري، أسس مقدرة هذه الطبقة الحاكمة عند المايا. إن كل هرم، وكل قطعة حجرية منحوتة سقطت من معبد خرب، يعطي الشعور بأن الكهنة لم يكونوا يضيعون أية فرصة للمخادعة ولإثارة الانبهار بهم. وكان تدشين مسلّة يعدّ بالتأكيد حدثاً دينياً هاماً، وفرصة للاحتفالات وللابتهاجات الشعبية، والتي كان الكهنة يغنون ويرقصون اثناءها ويستحضرون آلهة المطر والخصب. ومما لاشك فيه أنهم كانوا يستعيدون الحوادث الأساسية على الأرض وفي السماء خلال الخمسة أو العشرة أو العشرين عاماً التي مضت منذ إقامة المسلة السابقة. ولم يكن الشعب ليعرف بالطبع قراءة الهيروغليفيات، مما كان يعطي أهمية أكبر لهذا الطقس السحري العلمي. وكان الكهنة يفيدون دون ذمّة ولا ضمير من الجهل الذي كانوا يتركون عامة الشعب

قابعين فيه، حافظين سرّ الكتابة بشكل أناني لكي يكثفوا ويشحنوا جوّ الجزع والغموض الذي يخلقونه. لكنهم لم يحزروا ولم يفطنوا إلى أن هذا الجانب من قوتهم سيغرقهم يوماً في النسيان التام. وعندما ذُبح الملوك والكهنة والنبلاء بسيوف الاسبان، اختفت ثقافة المايا معهم. ولم يستطع علماء الآثار بعث ماضيهم إلاّ بعد أبحاث شاقة ومضنية؛ ولاتزال مع ذلك مسائل كثيرة معلقة حتى اليوم، لتوجه بنقاط استفهامها دراسات علماء الأمريكيات.

من العظمة إلى الانحطاط في يوكاتان

يظهر تاريخ امبراطورية المايا الجديدة فجوات أقل من تلك التي نجدها في تاريخ الامبراطورية القديمة، وذلك بفضل بعض الوثائق الأكثر معلومات بكثير من تواريخ المسلات. وفي الحقيقة، كانت ثقافة المايا قد تركت، بعد الحريق الرهيب الذي قضى عليها والذي سبّبه دييغو دو لاندا، مذكرات تاريخية (ممتزجة بالتنبؤات وبالطقوس وباللاهوت المحلي وبأساطير خلق العالم وبالتقاويم وبالعلاجات الطبية) مكتوبة بلغة المايا، إنما بحروف لاتينية كان الكهنة الاسبان قد علّموا تلامذتهم المحليين طريقة استخدامها.

كان مايا يوكاتان يسمّون كتبهم المقدسة «كتب شيلام بالام». وبالام كان اسم الـ شيلام (كليم الآلهة)، الذي كان آخر وأعظم أنبياء المايا. وقد عاش في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، وكان قد حاز على شهرة واسعة لأنه كان قد تنبأ تماماً بوصول الغرباء القادمين من الشرق، حتى نسبت إليه فيما بعد كافة النبؤات الأقدم بكثير منه والتي لم تكن له أية علاقة بها. وفي القرن التاسع عشر عُثر على «كتب شيلام بالام» وسرعان ما عُرفت أهميتها. وكان التلامذة المجتهدون للاسبان قد أعادوا كتابة مقاطع أساسية من المخطوطات الأصلية بالحروف اللاتينية، مما جعلها تفلت بذلك من عين دييغو دو لاندا القاسية ومن مرسليه المتزمتين.



صفحات من كتب شيلام بالام

احتوى كتاب شيلام بالام الذي وجد في شومايل توثيقاً هاماً بشكل خاص بالنسبة لإعادة تشكيل ماضي المايا في يوكاتان. وهو يسرد بخطوط عريضة تاريخ الإيتزا Itza، وهم أسياد مدينة شيشن ـ إيتزا Chichen – Itza، وإحدى العائلات الثلاث التي حكمت يوكاتان. وسمحت هذه القاعدة المعلوماتية للمؤرخين، وهي قاعدة متنامية تضاف إليها تجميعات أخرى لأقوال النبي ونتائج التنقيبات والدراسات الآثارية وحكايات دييغو دو لاندا، بوضع رؤية كاملة نسبياً لتطور الامبراطورية الجديدة.



صفحة من كتاب شيلام بالام الذي وجد في شوميل، وهو مكتوب بالحرف اللاتيني بإحدى لهجات المايا المتأخرة وبعض العبارات الإسبانية. محفوظ في جامعة برنستون الأمريكية.

وكما كان علينا أن نتوقع، فإن الهجرات القادمة من غواتيمالا والهندوراس ظلت في طور الاستقرار بضعة قرون حتى تأقلمت قبل أن تبدع أعمالاً عظيمة في الفن والعمارة قيمة جداً. وكان على المهاجرين أن يقتلعوا الأشجار وأن يبحثوا عن المياه، ولم يكن ثمة في يوكاتان أي نهر. إلاّ أنهم اكتشفوا في النصف الشمالي من البلاد السنوت Cenots، أي الآبار الطبيعية. والتي كانت ذات أبعاد كبيرة في غالب الأحيان. ولما كان المايا يجهلون كل شيء عن الجيولوجيا، فإنهم لم يشكوا أبداً بأن الأرض الكلسية في يوكاتان كانت تخفي بحيرات وأنهاراً كثيرة. ولكنهم سرعان ما تعلّموا كيف يفيدون من هذه الآبار التي كانت تربط السطح بطبقات المياه تحت الأرضية، ولم يوفّروا أي ثقب أو حفرة أو مغارة حيث يمكن للماء أن يتجمع. وهكذا خلقوا بالتدريج حقولاً قابلة للزراعة، ونشروا زراعة الذرة الصفراء وتجذّروا بعمق في أرضهم الجديدة.

وخلال هذه الفترة الأولى من التأقلم، كان السحر الفني للمايا قد خفت. لكن ما أن تأمّن مستقبل السكان حتى عاد الفن فانتعش، وبنيت مدن جديدة تميزت بجمال وبغرابة مميزين، وبأسلوب جديد نشأ عن اتصالاتهم بمهاجرين جدد قدموا من المكسيك الوسطى، وهم

التولتيك[1] Toltèques. وكانت شيشن إيتزا أعظم وأفخم المدن الجديدة كلّها، وتميزت بوجود اثنين من هذه السينوت فيها، والتي لا غنى للحياة عنها في بلد فقير بالمياه وبالري إلى هذا الحدّ. وكانت المدينة قد أخذت اسمها من هذين البئرين، شيشن - إيتزا، أي فوهة آبار الإيتزا. وكانت تتسع بشكل لا ينفك يزداد، وخاصة أن الشعب كان يتجمع فيها للحج من كافة أرجاء شبه الجزيرة، بل وحتى من أماكن أبعد بكثير لمشاهدة وحضور التضحيات الشعائرية.



عمارة شيشن إيتزا جمعت بين الفخامة والأسلوب الجديد

١-توجد تشابهات فنية كبيرة بين عاصمة التولتيك، تولا Tula، ومدن يوكاتان، وغالباً ما يطلق عليها أسلوب فن المايا - تولتيك.

كان على أسياد الإيتزا أن يشنوا باستمرار الحرب على أعدائهم النهريين، الكسيو Les Xiu، وهم قادة فرع منشق من المايا، فكانوا ينتصرون مرة وينهزمون مرة. ومع ذلك حصل أن اجتمعت ثلاث مدن كبرى، هي شيشن - إيتزا وأوكسمال Uxmal ومايابان Mayapan وشكلت وحدة (هي وحدة مايابان)، والتي عاش بفضلها السكان لمدة قرنين بسلام.



الهرم الرئيسي في مايابان، المعروف بالقلعة

ولكن لسبب تافه غير معروف (يزعم بعضهم أن ملكين أحبا المرأة نفسها، وأن خطيبها المسكين خطفها) عاد الصراع أكثر ضراوة مما كان عليه. وحاك أسياد شيشن إيتزا مؤامرة ضد ملك مايابان، إلاّ أن هذا الأخير عرف بالأمر ولجأ إلى حلفائه المكسيكيين. وبمساعدتهم عزل الملك ونكّل بسكان شيشن إيتزا حتى فروا منه. وعلى الرغم من ذلك لم يعترف الإيتزا بهزيمتهم واستمرت مقاومتهم لمايابان حتى وقعت هذه المدينة أخيراً عام ١٤٦١ تحت ضربات أعدائها.

لقد ميّزت هذه الأحداث بداية خفوت الامبراطورية الحديثة. وكانت النكبات تتتالى الواحدة إثر الأخرى. واجتاح إعصار البلاد، مقتلعاً الأشجار التي كان المايا قد زرعوها بعناية فائقة. وتفشّى مرض في المحاصيل والأشجار المثمرة، ثم نال من البشر أنفسهم؛ وأباد الطاعون السكان؛ وتكفّلت المجاعات والحروب الأهلية بالقضاء على الجزء الباقي من الأحياء! وهكذا لم يكن على الاسبان إلاّ أن يحصدوا المنكوبين المنقسمين والضعاف وأن يقطفوهم قطفاً!

إضافة إلى هذا التوثيق التاريخي، البسيط نسبياً بالنسبة لفترة طويلة كهذه، فإن كافة الشواهد كانت

تذكر شخصاً غريباً لعب دوراً عظيم الأهمية في تاريخ المايا. ويبدو أنه مع نهاية القرن العاشر، وصل غريب إلى يوكاتان. وكان يدعى بالمكسيكية «كتزالكواتل Quetzalcoatl»، أي «الطير الثعبان كتزال»، وبالمايا «كوكولكان Kukulkan» أي «الثعبان ذو الريش». وتحكي الأسطورة أنه وصل كأسير حرب إلى شيشن إيتزا، وأن المايا دفعوه مباشرة في بئرهم المقدسة ليقدموه كذبيحة لإله المطر ناحوش ـ يومشاك. إلاّ أن كولولكان لم يغرق في المياه القاتمة، وحتى الظهيرة كان لايزال حياً، وعندها عاد المايا فانتشلوه بحسب تقاليدهم.



تكثر تمثيلات الإله كوكوكلان في مواقع المايا حيث كان أشهر آلهتهم

وهكذا قُدّس كوكولكان، هذه الذبيحة التي حماها إله المطر، وأصبح مرسل الإله إلى الأرض. وبهذه الطريقة يفسّر التقليد تدخل هذه الشخصية في أمور الامبراطورية الجديدة. وأياً كانت حقيقة الأمر، فقد حكم كوكولكان شيشن ـ إيتزا، وأصبح بذلك أقوى قادة المنطقة. وكان الجميع، القريبون والبعيدون، يعتبرونه مثل إله. وشيدت له معابد مزينة بتمثيلات ثعابين ذات أرياض. وأعطى الفنانون جسم الألوهة شكل الثعبان ذي الأجراس، إلاّ أنهم أبدلوا قشوره بأرياش الكتزال المقدس.



رسم تمثيلي
لأسطورة الثعبان ذي
الريش كتزالكواتل

وجعل كوكولكان من مايابان عاصمة له، وأعاد السلام إلى يوكاتان. وفي أحد الأيام، وكانت قوته قد بلغت أوجها، اختفى فجأة تماماً كما وصل!

كان علماء الآثار يتساءلون. وهم يحررون وينظفون المعابد التي شيدت على شرفه، عن أصل هذا الرحالة الغريب. هل كان مجرّد قائد مكسيكي؟ وفي هذه الحالة، لماذا كانت له لحية في إحدى صوره؟ فالمايا شبه المرد كما والمكسيكيون أيضاً كانوا ينتفون الشعرات القليلة التي كانت تنبت لهم. وبالنتيجة، هل كان كوكولكان أحد البيض؟ ذلك ما تشير إليه كافة الظواهر، فهل كان أحد رجال الشمال؟ وهل علينا التمييز بين إله كوكولكان وبطل حقيقي، أم أن هذه القصة كلها لم تكن إلاّ جزءاً من أسطورة واحدة، ليس لها أي أساس حقيقي؟ لا تزال كافة الفرضيات مطروحة حتى اليوم، بينما يبقى عصر كوكولكان مكتنفاً بالظلال وبالعتمة. والحق أن البحاثة لا يشعرون أنهم على أرض صلبة إلاّ منذ وصول الاسبان، وذلك بفضل الشهود الاسبان الذين يوثقون المايا على ضوء واقعي وتاريخي.

وتروي إحدى هذه الوثائق قصة مجموعة من البيض جنحت بهم سفينتهم على شاطئ يوكاتان في

عام ١٥١١، وهم عشرون بحاراً وامرأتان. وقتل بعض الرجال فوراً مع المرأتين، في حين وقع باقي رفاقهم بأيدي قبيلة أهلية. وسرعان ما لقي خمسة من الناجين التعساء المصير المعتاد المقدر للغرباء، فقد نزع الكهنة قلوبهم وهم لا يزالون على قيد الحياة. ثم قدمت أجسام المضحى بهم وأكلت في وليمة رسمية، على مرأى من رفاقهم البائسين. وعندما حُبس هؤلاء في قفص خشبي عرفوا مباشرة أن مضيفهم يخبىء لهم المصير نفسه. وفي الحقيقة كان الناجون من الوليمة شخصين فقط، والسبب أن هذين الرجلين، وهما جرونيمو أغيلار Geronimo Aguilar (وهو راهب) وغونزالو غرّيرو Gonzalo Guerrero (وهو بحار خبر الرحلات الطويلة)، بديا نحيلين للكهنة مقدمي الذبائح! ولهذا قرر هؤلاء تسمينهما في قفصهما. لكن الاسبانيان أفادا من لحظة غفل فيها حراسهما، فخرّبا قفصهما وهربا إلى الأدغال.

كان أغيلار وغريرو يمشيان ليلاً ويختبآن نهاراً. وبعد مراحل كثيرة عاشاها يائسين صادفا قبيلة للمايا أكثر كرماً وترحيباً. وقد راعتهما هذه القبيلة كونهما أفلتا من قبيلة معادية. إلاّ أنها لم تجد بداً من حبسهما.

وبيع أغيلار إلى قبيلة ثالثة، ونجح أخيراً بالالتحاق بسوقة جديدة من مواطنيه. أما غريرو فاختار البقاء عند الأهالي المحليين. وعلّمهم كل ما كان يعرف وتأقلم تماماً مع عاداتهم وأخلاقهم. وثقب رَوِّمتيه (شحمتا الأذنـين) ليدخل فيهما قرطين كبيرين على طريقة المايا. لكنه لم يستطع تسريحته على طريقة الهنود، ولا مجاراتهم في نهمهم. وكان الوقت قد تأخّر كثيراً أيضاً ليمنع لحيته من النمو بغسل وجنتيه بالماء الساخن، إلاّ أن صبايا المايا وجدنه مع ذلك جميلاً. وتزوّج ابنة القائد، وكانت جميلة ومثقفة جداً، وأصبح أحد أكثر أفراد العشيرة رفعة.



غونزالو غريرو، الذي اختار البقاء مع المايا ودافع عنهم ضد الغزو الإسباني

وعندما علم الاسبان بقصته أرسلوا إليه رسالة يقترحون عليه فيها الالتحاق بخطوطهم. ولم يكن قد خطر ببالهم ولو للحظة واحدة أن أحداً منهم كان يمكن أن يفضل العيش مع المايا على العودة إلى رفاقه! ولهذا كانت دهشتهم عظيمة عندما أجابهم غريرو باعلان الحرب عليهم على الطريقة الأوروبية. وقاد خلال ثمانية أعوام قبائل المايا لتحقق الانتصارات على مهاجميها. ولو أنه لم يمت في تلك الآونة بالذات، لربما كان تاريخ أمريكا قد اختلف تماماً.

لكن غريرو مات، وبعد فترة وجيزة ضعفت مقاومة المايا. وعلى الرغم من أن معظمهم استمر بالقتال ببسالة، إلاّ أن ارستقراطية الكسيو تحالفت مع الاسبان، وبواسطتهم أخضعت باقي القبائل شيئاً فشيئاً، وذبح وقتل الغزاة الأهالي بشكل مخز. واستخدموا كافة وسائل التنكيل والتعذيب لاخضاعهم. وتخبرنا تأريخات المايا في ذلك الوقت أن الغزاة: «بدأوا عندها بشنق الأهالي، ووضعوا النار في أيدينا. ثم أخذوا أولاد أغنى إخوتنا وأرسلوا كرهائن». وبعد أن عُزل قادتهم، وقتل كهنتهم، ومنعت ديانتهم، وأحرقت كتبهم انطفأت حضارة المايا دون أن يمكن تلافي ذلك. وخلال بضعة سنوات أباد

البيض بوحشية ودون شفقة ما لم تستطع قرون من الحروب ومن الوباء ومن المجاعات أن تفنيه.

ضوء القمر على شيشن ـ إيتزا

يُعدّ إدوارد هـ. تومبسون Edward H. Thompson أنشط جميع علماء الآثار الذين ساهموا باخراج المايا من الظل إلى النور. وقد عاش أكثر من أربعين عاماً في يوكاتان وأنجز فيها استكشافات ما كان أي انسان آخر ليقدم عليها. وتركت بعض المغامرات آثارها عليه مدى الحياة، إذ أصبح أعرجاً بعد سقوطه في فخ للجرذان نصبه الأهالي، كما وأصابه من غطسه في بئري شيشن ـ إيتزا المقدسين صمم طفيف. وقد أدى طفح حراري تكرّر مرات كثيرة إلى تساقط شعره. لكنه لم يبد أبداً أي أسف لذلك كله. وكتب ذات مرة: «لقد بذلت أقصى ما بوسعي في استكشافات رائعة، وأنا راض تماماً بذلك».

ويخبرنا تومبسون كيف توصل إلى الاهتمام بيوكاتان «بواسطة قارة الأطلنتك الضائعة». فمنذ صباه كان علم الآثار قد جذبه لأن أرض موطنه، «انكلترا الجديدة»، كانت مليئة بآثار الهنود، ولم يكن ثمة بالنسبة له ما

يضارع سروره باكتشاف حجر منحوت إلاّ سروره بوضع هذا الحجر في المتحف المحلي. وفي أحد الأيام وقع كتاب ستيفنز بين يديه. واهتم تومبسون بموضوعه، وجمع كافة الوثائق التي استطاع العثور عليها حول حضارةٍ المايا. ترى هل كان هؤلاء الهنود المدهشين هم حقاً إخوة الرجال البسطاء الذين كان قد أعطى رؤوس سهامهم ومدقاتهم للمتحف؟ وفي حالة النفي، من أين تراهم قدمواٍ؟ وأعد تومبسون نظرية حول ذلك، ونشر موضوعاً حولها بعنوان «الأطلنتك ليست أسطورة». وبحسب فرضيته، فإن حضارة المايا كانت أرومة انفصلت عن الأطلنتك، تلك القارة الرهيبةٍ الضائعة التي كانت ممتدة في المحيط الأطلسي سابقاً، والتي غرقت بحسب أفلاطون إلى الأبد في قلب الأمواج خلال نهار وليلة.

كانت نظرية جسورة مما أدى إلى اشتهارها. وبعد فترة وجيزة قدّر رئيس جمعية الآثار الأمريكية ونائبه أن الشاب تومبسون كان مناسباً تماماً لمنصب قنصل يوكاتان، والذي كان شاغراً في تلك اللحظة بالذات. واقترحا تعيينه مع إفهامه أنه كان عليه تخصيص أعظم وقت ممكن لاستكشاف المدن الخربة ولدراسة

الأحفاد المعاصرين للمايا. وأخفى تومبسون فرحه بصعوبة. إن قلة قليلة من الرجال يقبلون بمثل هذا الحماس عملاً شاقاً كهذا إذا ما قدم لهم. لكنه كان يشعر انه مستعد لمواجهة كافة مخاطر الأدغال كما كان قد وصفها ستيفنز. وأهمل تومبسون بعض الشيء زوجته وطفلهما الذي ولد منذ شهرين فقط ليعيش أطول فترة ممكنة مع الأهالي الأصليين، مسافراً دون متاع كثير، ومقاسماً إياهم طعامهم ومتعلماً لغتهم وكاسباً صداقتهم. وكان يعمل بالتنقيب نهاراً، وإذا حلّ الليل كان يستمع إلى الأساطير الهندية التي كانت تبهج السهرات الطويلة حول نار المخيم.

ظل تومبسون قنصلاً ليوكاتان قرابة ربع قرن منذ عام ١٨٨٥ ، وعاش من اليوم الأول إلى اليوم الأخير بين الهنود، وجاب البلد كله معهم. وزار كل مدينة قديمة معروفة، واستكشف كل معبد. وقام بأبحاث كثيرة عظيمة الأهمية والقيمة، واكتشف مدناً كثيرة لم تكن معروفة حتى ذلك الحين. وأثناء جمعه للوثائق المتعلقة بموضوعه حول المايا والأطلنتك قرأ «حكاية الأشياء في يوكاتان» لدييغو دو لاندا. ولفت اهتمامه فيه بشكل خاص ما يذكره المؤلف عن بئر الإيتزا المقدسة. فقد

كتب دو لاندا «من الباحة المواجهة للمسرحين (وهما مصطبتان حجريتان أمام المعبد الرئيسي)، كان ممر عريض وجميل يقود إلى بئر يقع على مسافة ضعف مرمى حجر. وكانت لدى المايا عادة دفع رجالٍ أحياء إلى هذا البئر، كما وكانوا يدفعون إليه أيضاً بالصبايا، وذلك كتقدمة للآلهة خلال فترات القحط. وكانوا يعتقدون أن هؤلاء الضحايا لا يموتون أبداً، على الرغم من أن أحداً منهم لم يكن يرجع إليهم. وكانوا يرمون فيه أيضاً مواداً ثمينة كثيرة وكل ما كانوا يقدرونه بشكل خاص».

وتخيّل تومبسون الاحتفال. ورأى المايا وهم يمشون بصفوف مهيبة، وينزلون الدرجات الهاوية لمعبد كوكولكان، ثم ينطلقون على الدرب المقدسة. وسمع موسيقا طبولهم وناياتهم وصفاراتهم، وتخيّلهم وهم يدفعون بالمحاربين الأسرى وبالعذارى وبكافة الأشياء الثمينة في البئر لتهدئة اهتياج الآلهة. ولم يستطع تومبسون التخلص من تصوّر ما كانت تحويه هذه المياه الوسخة والممتلئة بالمآسي.ووعد نفسه مراراً باستكشاف البئر وبنبش سرّه.

وبعد فترة بسيطة من تعيينه، جهز نفسه لزيارة

شيشن إيتزا في أول فرصة سانحة. وكانت حملة لا تنسى! إن حياةٍ كاملة مخصصة للاستكشاف لا يمكن أن تمحو أبداً أولى الانفعالات التي أحسّ بها أمام مدينة كوكولكان.



معبد كوكولكان في شيشن إبتزا

فقد وصل إليها في مساء مقمر. وكان يسافر منذ عدة أيام عبر الأدغال. وكان يشعر بتعب شديد وقد وغَفَا على عنق مطيته، عندما سمع دليله يطلق فجأة

صرخة دهشة. كان الهندي يشير إلى شيء ما أمامهما. ورفع تومبسون نظره وإذا به يستفيق لتوه. كان يرتفع أمامه مبنى، على قمة هضبة منحدرة ذكرته بمعبد إغريقي ما. وكان كلما اقترب يبدو له الصرح وكأنه يكبر، وشعر «بنوع من الألم الجسماني، كما لو أن قلبه كان قد توقف للحظات، ثم عاد يخفق بسرعة». وسرعان ما تعرّف على معبد كوكولكان.

وعلى الرغم من تعبه وانهاكه، لم يفكر بتومبسون للحظة واحدة بالراحة. أما الدليل المُتعب، فما أن أنزل سرجي الجوادين حتى تخاذلت قوته، وغاب في نوم عميق. وتركه القنصل الشاب ينام وارتقى بصعوبة الدرجات التي كانت تقود للمعبد. كانت الأشجار والأشواك قد اجتاحت الهضبة، ولم يصل إلى القمة التي ترتفع ٢٧ متراً إلاّ بشق النفس. ولكن هناك، أمامه، كان يوجد المعبد السري، الذي كان محظوراً دخوله إلاّ على الكهنة فقط. وعلى إطار مدخل فخمٍ يصل إلى ١٤ متراً، استطاع أن يميز في العتمة نقوشاً بارزة ذات تشبيكات معقدة. وأثر فيه بشكل عظيم الجمال الغريب لهذا المعبد المخصص لعبادة منسيّة. وكتب فيما بعد «أكان يجب أن أدهش إذا ما أخذت

ركبتاي ترتجفان قليلاً وإذا ما تراجعت بخشية، وأنا على وشك إثارة غضب الألوهة الرهيب، أنا الذي دنست نظراتي الكافرة المعبد»؟



مال تومبسون وقد سحره هذا الإعجاز الخالد نحو المدينة الميتة التي كانت صروحها تعكس ضياء القمر اللطيف عند قمة أهراماتها. كانت الخرائب الشاحبة تترامى على خلفية سماء بلون نيلي داكن. وفجأة تسمّر نظره على موضع معين. فقد لفت انتباهه ممر عريض يربط المعبد بحوض، وقد اجتاحته الأشجار والنباتات. وأدرك بلمح البصر ما الذي كان يبصره. كان هذا

الشريط الذي لا يستطيع إزاحة بصره عنه هو الدرب المقدسة، وهذا الحوض هو بئر التضحيات الذي كان دييغو دو لاندا قد تحدث عنه!

كان تومبسون منذ قراءاته الأولى قد تنبأ وشعر بأنه سيخصّص عمله كله لشيش إيتزا. أما الآن فقد أصبح أكيداً من ذلك. وعندما ترك مدينة كوكولكان، كان يعرف أنه سيرجع إليها، وأنه سيبقى فيها حتى يسبر جميع أسرارها. إلاّ أن أبحاثاً واستكشافات أخرى أمسكته لسنوات كثيرة عن تنفيذ هذا المشروع. وأخيراً سمحت له ثمار ٢٥ عاماً من التوفير بشراء مشتل مهجور كانت حدوده تضم المدينة التي كان يحلم بتنقيبها. وسرعان ما استقر فيها وانطلق في أروع مغامرات حياته التي لم تكن إلاّ سلسلة من المغامرات.

البئر يكشف عن سرّه

لقد أدرك تومبسون مباشرة أن بئر المياه الصافية والقابلة للشرب التي كان يستخدمها المايا لم تكن تهمه أبداً. إنما الذي كان يهمه ويشده بشكل لا يقاوم هو الكنوت. البئر الثانية ذات الماء الوسخ والداكن. ومنذ شرائه لأرضه الجديدة، كانت كافة نزهاته تقوده إلى

هيكل صغير أمام البئر. وهناك، كان يحلم ويفكر ويحسب ويقيس ويسبر. وكان تومبسون، كعالم آثار دقيق، يعرف أنه لا يستطيع تحقيق مشروعه الكبير مباشرة، لكنه لم يكن يستطيع الابتعاد عن هذا الموقع.

كان يتعين عليه قبل كل شيء تنظيف الأرض، ثم دراسة المدينة بشكل منهجي. وهو ما لم يكن أمراً بسيطاً! والحق أن شيشن-إيتزا كانت مدينة كبيرة في أوج عظمتها. وكانت أبنيتها الخربة تغطي عدة كيلومترات مربعة. وكانت آلاف الحجارة، المنحوتة أو غير المنحوتة، ومئات الأعمدة تغطي الأرض من كل ناحية. كما كانت سبعة صروح حجرية مزينة بالمنحوتات ومليّسة بالجص تشرف على مجموع ذلك كله. ولهذا كان هنالك عمل كثير حتى أنه بدا من المثير للسخرية أن يحاول أولاً حل لغز البئر المقدس. إلاّ أن تومبسون لم ينس أبداً هذا الهدف الذي جعله يشتري المشتل.

كان هذا البئر المقدس يشكل دائرة بيضوية يصل قطرها الكبير إلى نحو اثنين وستين متراً، بينما كانت حوافه الداكنة تغوص عمودياً في المياه. وكان المايا قد حفروا الحوض في الصخر، في منخفض طبيعي. وقاس تومبسون عمق سطح الماء ابتداء من الحافة فبلغ ٢٧

متراً. سبع وعشرون متراً... إذن فإن الصبايا اللواتي كن يقدَّمن لناحوش يومشاك المخيف، كن يُدفعن بقسوة من على المذبح، ليسقطن من على ارتفاع سبع وعشرين متراً، قبل أن يغصن في المياه القاتلة.



البئر التي نزل فيها تومبسون في شيشين إبتزا كما ترى اليوم

وفي أحد الأيام، قرّر تومبسون بعد أن ملّ انتظار تحقيق مشروعه، ألا وهو الغوص في البئر ليجلب منه البرهان القاطع والمادي على التقدمات التي ذكرها دييغو دو لاندا. كان يعلم أن المهمة خطرة. وكان عليه أن يواجهها لوحده، دون وسائل تمويلية ولا معارف

تقنية عظيمة. لكنه كان يتمتع بإيمان لا يتزعزع، ولم يتردّد أبداً. لكنه في اللحظة نفسها التي اتخذ فيها قراره استدعي إلى الولايات المتحدة للمشاركة في مؤتمر علمي. وبعد إحدى الجلسات، وخلال اجتماع تعارف، وجد تومبسون الفرصة الملائمة ليطرح بهدوء عظيم، حكاية البئر المقدسة، وليشرح كيف كان يأمل إثبات صحة النصوص القديمة. وأدى إعلانه ذاك إلى إثارة خوف الناس على حياته.

لكن النصائح والاعتراضات ذهبت كلها أدراج الرياح، ولم يكن ليثنيه شيء عن عزمه. ولهذا انطلق إلى بوسطن حيث حصل على إعانات مالية وعلى شبكة خاصة لهذا النوع من الصيد، وتلقى بعض الدروس في الغوص. وكان يعتقد جازماً أنه لو كان البئر يحتوي على أية آثار، فإنها لن تكون بمتناول غطاس بسيط غير متمرس. وكان يعلم أن الطين وأوراق الأشجار والحجارة وفضلات أخرى كانت قد تكدّست في القاع منذ عدة قرون. ولهذا كان يتعيّن عليه أن يعدّ العدّة بشكل جدي قبل أن يستطيع العودة بغنيمة هامة. وكان منذ تلك اللحظة يستعد للامتحان النهائي، ولأكثر العمليات صعوبة. ومنذ عودته إلى شيشن إيتزا

بدأ بالعمل. كان قد قاس موضع «المنطقة الخصبة» من البئر، إذ كان قد صنع دمى خشبية بحجم وبثقل الرجال الأهليين، ودفعهم إلى الماء؛ وكان مكان سقوطهم قد أصبح بالنسبة له الموقع الدقيق بشكل أو بآخر والذي سيجد فيه الشواهد على التضحيات. ثم نشر شبكته بحيث تصل إلى تلك المنطقة. وتأرجح الكلاّب الفولاذي، وغطس في الماء، وسحب منه أول كتلة من الخشب المتعفّن ومن الأوراق اليابسة وقطع الصخور. ثم عاد فنزل مرة أخرى مكرراً العملية دون توقف. ووصف تومبسون ذلك كاتباً: «دام الأمر أياماً عديدة، وصعد الكلاّب عشرات وعشرات المرات، حاملاً معه دائماً حمله الرتيب من الوحل والأغصان، والوحل، والوحل...». وفي إحدى المرات حمل الكلاّب الضخم جذع شجرة، وفي مرة أخرى عظام أيل ونمر أمريكي، لكنه في معظم الأحيان لم يكن يجلب معه سوى الوحل والطين. ونفذ صبر تومبسون، واهتزّ تفاؤله أمام ركام الطين. وكتب في لحظات الشدّة تلك وهو يكاد يفقد عقله: «أمن المعقول أنني جررت أصدقائي إلى كل هذه النفقات، وأنني أقمت في أسوأ الظروف بهدف أن أثبت فقط ما كان قد فهمه آخرون منذ زمن بعيد؟ ألا إن

هذه التقاليد والقصص ليست إلاّ أساطير وخرافات قديمة!»

وأخيراً، وبعد صبر طويل، ظهرت على قمة كتلة من الطين بلون الشوكولا قطعتان دائريتان بلون أبيض مصفّر. وكانتا تبدوان وكأنهما شغلتا من مادة راتنجية، تشجع تومبسون وذاقها. وعندها واتته فكرة طيبة، وهي أن يضع قطعة منها في النار. وعندها انتشرت رائحة شهية، وفي اللحظة عينها تذكر تومبسون نصاً من تأريخات المايا بوضوح ساطع: «كان آباؤنا يحرقون فيما مضى الصمغ المقدس، بوم pom، الذي كانت رائحته المسكرة تحمل صلواتهم للآلهة الذين يسكنون الشمس». فالحجارة المصفرة كانت إذن بخّور المايا!

ومنذ ذلك اليوم، أخذ الكلاّب يحمل معه بانتظام، وعلى مدى عدة شهور، قطعاً هامة مثل الآنية والمباخر، ورؤوس السهام والحراب، والفؤوس والمطارق الحجرية، وأقراص النحاس والأجراس الصغيرة، وسدادات الآذان والأقراط الذهبية، وقطع اليشب، وأكثر البراهين هولاً، وهو اليهاكل العظمية للصبايا وللشباب. وكان كل ذلك يثبت حقيقة القصص القديمة التي نقلتها النصوص. وعندما لم يعد الكلاّب يرجع إلا بقطع من القشرة

الصخرية، أدرك تومبسون أن الأداة أنجزت مهمتها. وبات على الأيدي البشرية منذ تلك اللحظة متابعة العمل، والبحث في الحفر والتجاويف العميقة في القعر عن آخر قطع الكنز. وعندها ارتدى عالم الآثار لباس الغوص ليستكشف بنفسه أعماق البئر المقدسة. ونجح بصبره الذي لا حدود له وبشجاعته التي لاشك فيها في إثبات مصداقية التقاليد، وجمع أكثر من ثلاثمائة قطعة ذهبية، وهي: خمسة أقداحٍ وقصعات، وأربعون صحناً مفلطحاً، وعشرون خاتماً، ومائة جرس صغير وقطع أخرى مختلفة. إضافة إلى ذلك كانت توجد مئات اللآلىء، والأقراط، ومجوهرات وحلي أخرى، وكلها من اليشب، وتعشيقات من التركواز، وتماثيل صغيرة وخزف وسكاكين التضحيات ورؤوس حراب مشغولة بدقة رائعة.

كان ذلك كله يقدّر بملايين الفرنكات. ولكن ما كانت قمية هذا الكنز المادية إلى جانب مساهمته التاريخية. ذلك أنه عرّف العلماء والناس بالمايا أكثر مما حققته كافة التنقيبات السابقة له. وعدّ بحاثة وعلماء كثيرون أن هذا الاكتشاف الآثاري كان من أهم اكتشافات علم الآثار وأنه كان مساوياً لاكتشاف قبر توت عنخ آمون.

في قلب هرم

مما لاشك فيه أن تومبسون كان يعدّ تنقيباته في البئر المقدس على أنها أعظم نجاح حققه في مهنته. ولكنه كان يضع بعدها مباشرة اكتشاف قبر الكاهن الأعظم. فبينما كان ينظف أرضٍ معبد صغير في قمة هـرمٍ يرتفع ثلاثة عشر مـتراً، لاحـظ وسـط الحـجرة تماماً بلاطتين حجريتين ضخمتين صقلتا بعناية. ولم يكن قد صادف أبداً مثل هذا التشكيل.ورفع البلاطتين بحذر وعناية، وإذا به يفاجأ بظهور بئرٍ مربعة. وكانت جدرانها تتصف بميزة متفردة تماماً، إذ كانت قد بنيت من حجارة مقصبة بدقة ومتراكبة بزوايا بسيطة مثل القرميد. فما كـان هـدف المايا مـن حفر هذه البئر العجيبة ههنا؟ ولم يشأ تومبسون تأجيل هذا الاستكشاف الجديد إلى اليوم التالي.

ولكن في اللحظة التي بدأ نزوله فيها، وجد أنه كان عليه أن يتخلص من عائق كان قد سبقه... فعلى عمق أربعة أمتار تحته كان ثعبان هائج عظيم الحجم يلتف على نفسه، مستعداً للدفاع عن جحره ضد أي اعتداء. وهكذا اضطر تومبسون للتخلي عن مسالمته وعدم

حبه للعنف كعالم آثار ليتحول إلى صياد، فسدد إلى الحيوان وأرداه! وبعد أن تأكد من زوال الخطر، انزلق في البئر ليعرف ما الذي كان الثعبان يحميه. ولاحظ كمية من العظام البشرية وقد التُهم نصفها، وكانت تنتمي لشخصين مختلفين، ثم لم يعد يلاحظ شيئاً... وأحبط تومبسون، وأخذ ينظف الأرض، والتقط العظام وهمّ بالعودة عندما لاحظ فجأة أن إحدى البلاطات تحت قدميه لم تكن مثبتة بشكل جيد. ورفعها ليشاهد كما في المرة الأولى بئراً وهيكلاً عظمياً. وجمع العظام ونظّف الأرض بسرعة، ووجد بلاطة جديدة، وتحتها كان يوجد قبر آخر. وكانت دهشته لا تنفك تزداد. وحرر القبر الرابع، وكما كان يتوقع وجد تحت العظام بلاطة أخرى.. كانت البلاطة الخامسة. ولاحظ عندها أنه بلغ مستوى قاعدة الهرم، وكان الهرم قد شيّد في الواقع على صخرة كلسية عظيمة الصلابة. وأمل تومبسون أنه سيصل أخيراً إلى مفتاح اللغز. ولكن في هذه المرة أيضاً وجد نفسه أمام البلاطات نفسها. وكان يزداد إثارة، ورفعها ليجد أخيراً درجات محفورة في الصخر تقود إلى حجرة نحتت هي أيضاً في الصخر.

كان الخيال يمتزج بالواقع بشكل غريب ومبهم، لكن تومبسونٍ قرّرٍ متابعة العمل. كان رماد الخشب يغطي جـزءاً كـبـيراً مـن الحـجـرة ومـن الـدرج الذي كان يقود إليها. ولم يكن أمامه لكي يحـرّر الممرّ إلاّ أن يستلقي على ظهره وأن يدفع الرماد بقدميه إلى سلة، ثم يرفعها فوق رأسه للعمال الذين كانوا ينقلونها بالتسلسل عبر الآبار المتلاحقة، لتصل في نهاية الأمر إلى ابن تومبسون الشاب الذي كان يقف على سطح الهرم. وكان عالم الآثار في الأسفل يعمل كل ما بوسعه ليتقدم بشكل أسرع بواسطة رجليه ويديه وقد غمره الرماد حتى رقبته.



إحدى البلاطات التي وجدت فوق أحد القبور وقد نقش عليها مشهد أسطوري لإله العالم السفلي

وعندما استطاع تحرير مساحة كافية، أنزل أربعة من رجاله لاسعافه في العمل. وأخيراً استنتج أنه بلغ أقصى الحجرة، وكان قد أنهك تماماً واستعد لإيقاف العمل عندما لاحظ بلاطة حجرية كانت قد ألقيت بخفة على الجدار. أمسك بها وشدّها. فإذا بها تلين وتنسحب دون أية صعوبة ليظهر خلفها ثقب أسود ينفتح مباشرة في أرض الحجرة. وهبّت على الغرفة نسمة باردة جداً، فأطفأت الشموع وأخذ الموجودون يرتجفون برداً. كان تومبسون في حال يرثى لها، وهو واقف بتوازن غير ثابت وفي حلكة دامسة فوق هذا الثقب الذي كان اللّه وحده يعرف إلى أية أعماق يقود.

أما الهنود، فقد استولى عليهم رعب شديد إذ اعتقدوا بأن ذلك كان تجلياً لقوى جهنمية. وكان على تومبسون أن يشرح لهم بأن مفهوم جهنم كان يتعارض مع هذه الدرجة المنخفضة والمثلجة من الحرارة، حتى ذهب عنهم الخوف. وما أن اطمأنوا واقتنعوا حتى بدأوا بتنفيذ ما طلبه منهم تومبسون فأخذوا يرمون معاطفهم وقبعاتهم على البئر لقطع تيار الهواء وإعادة إشعال النور. وما أن تم ذلك حتى رفعوا الثياب قليلاً قليلاً وهم يحمون شموعهم، لكنهم لاحظوا أن الهواء

كانٍ قد توقف. ومال تومبسون على الفتحة، ووجد أن بئراً أسطوانياً كان يغوص في الأرض. فأشعل فانوساً صغيراً وربطه بطرف متره الشريطي الطويل وأنزله كله. كان العمق سبعة عشر متراً!

وخصص عالم الآثار اليوم التالي للاستعداد للنزول، وفي اليوم الذي تلاه، انزلق علي حبل في البئر وقد عض على سكين بأسنانه (احتياطاً لكل طارىء!) وأمسك فانوساً بيده. وما أن مسّت قدماه الأرض، وذلك وسط الحجرة تقريباً، حتى استطاع التأكد من تحقق آماله. فقد التقط من جانب قدميه لؤلؤة من اليشب يبلغ محيطها أكثر من ١٢ سنتمتراً، مصقولة بشكل كامل ورائع. وإلى جانبها لاحظ تعويذة رائعة من المادة نفسها، وأبعد قليلاً منها لاحظ قطعاً شفافة، كأنها من المرمر، لآنية كانت تحوي مجوهرات من اليشب وقد تناثرت على الأرض. وكانت تمتزج باليشب مواد من عرق اللؤلؤ وعقود من الآلىء وآنية وأقداح.

لم يكن تومبسون قد شك للحظة واحدة، خلال مغامرته عبر الآبار المتلاحقة، بأن الأمر كان يتعلق بقبر شخصية رفيعة جداً. ولكنه عندما رأى هذا الكنز المدفون تحت عمق ثلاثين متراً من التراب ومن الصخر

المنحوت، شعر بأنه كان «يوجد ليس فقط في قبر كاهن عظيم، بل في قبر الكاهن الأكبر، الإله، كوكولكان البطل نفسه، الذي كان رمزه الثعبان». وإن تعارضت هذه الفرضية بشكل كبير مع الحكاية التي تقول إن كوكولكان عاد إلى المكسيك، لكن تومبسون تمسّك بها. ولكن ما سرّ الهياكل الأخرى إذن؟ أكانت لجثث من رتبة أدنى، وقد ضُحي بهم عند موت الكاهن الأعظم ليتابعوا خدمته في العالم الآخر؟ أم كانت جثث الكهنة الذين تلوه؟

ذلكم مجهول جديد أضيف إلى مجاهيل أخرى كثيرة يعمل علماء الأمريكيات جهدهم بصبرة وأناة على حلّها. ولكن كم مجهولاً سيجد حلاً من بينها؟ لاشك أن ذلك مشروع طويلِ الأمد، لكنه يتقدم، وتكثر النظريات التي تقدم حججاً إيجابية وملموسة.

وتلكم هي بالتحديد حال مسألة أصل اليشب. فقد لاحظ تومبسون (وكان ذلك جلياً وواضحاً) أن المايا كانوا يثمنون هذا الحجر بشكل خاص، حتى أنهم كانوا يضعونه فوق الذهب نفسه. وكان لونه الأخضر هو الذي يعطيه هذه القيمة الفائقة، إذ أن الأخضر كان على صورة النباتات المقدسة بل وعلى صورة الحياة

نفسها . وكان المايا يصنعون التعاويذ من اليشب لكهنتهم ولملوكهم، وكانوا يستخدمونها أثناء الاحتفالات المقامة على شرف الشمس والثعبان المقدس. وكانوا يتبادلون فيما بينهم هذه الرموز التي لا تقدّر بثمن، ويلقون أحياناً باليشب في البئر المقدسة، مقدمين لإلههم الغضوب أعظم تضحية بعد التضحية بالنفس. ولكن من أين كانوا يأتون بهذا اليشب؟!

طرح تومبسون هذا السؤال على نفسه وهو يتأمل باعجاب جواهر كاهن شيشن - إيتزا العظيم، وعاد إلى ذاكرته الموضوع الذي كان قد كتبه في بداية عمله بمهنته، وهو بالتحديد الموضوع الذي شهره. إنه موضوع قارة الأطلنتك الضائعة. فهل يمكن لهذه النظرية التي كان يراها متسرّعة بعض الشيء بعد كل هذه السنوات من التنقيب ومن الخبرة المكتسبة أن تحل هذه المسألة؟ في الحقيقة، إذا كان المايا قد جلبوا اليشب من «موطنهم البحري الأطلنتك»، فإن ذلك سيفسّر وجوده في منطقة لا تحوي هذه الحجارة الثمينة. هذا على الأقل ما كان يعتقده معاصرو تومبسون، إذ أنهم لم يجدوا قطعة منه من الألاسكا وحتى كولومبيا البريطانية. وذلك يفسّر أيضاً التصغير المتلاحق للقطع. وبحسب تومبسون،

ظل المايا لفترة على اتصال مستمر بالأطلنتك، وكانوا يتزوّدون باليشب بسهولة، وكان بامكانهم بالتالي نحت قطع كبيرة نسبياً منه. ولكن بعد أن غرقت الأطلنتك في الماء، أخذ المايا الذين حُرموا من موردهم يقسمون ما كانوا يملكون منه إلى قطع أصغر فأصغر. كانت الفرضية مثيرة جداً، لكن حتى اليوم لم يثبتها أي دليل مادي.

لكننا نعرف اليوم أن فرضية تومبسون ليست صحيحة، فقد طرح مورلي S.G. Morley (عام ١٩٤٧)، اعتماداً على خبراء في علم المعادن أنه يوجد منجمان لليشب في أمريكا الوسطى، أحدهما في الجبال المكسيكية الجنوبية والآخر في مرتفعات غرب غواتيمالا. لكن هنود أمريكا، على عكس الصينيين (الذين كانوا هم أيضاً من كبار محبي اليشب)، لم يجدوا أبداً موضع المناجم. وبالتالي فقد كانوا يلتقطون من قعر الأنهار قطع اليشب التي كان وزنها يتراوح بين بضعة غرامات وعدة كيلوغرامات.

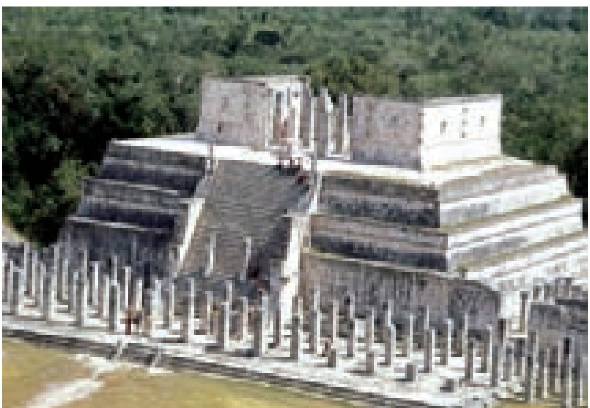
إن هذه الاعتبارات الأكثر واقعية تذكّرنا بأن علم الآثار علم انساني، ويهتم بشكل أساسي بايجاد حقيقة الحضارات القديمة.

إغريق العالم الجديد

عندما وضع تومبسون قدمه للمرة الأولى في شيشن ـ إيتزا، كانت عبارة عن بضعة خرائب تطل من دغل كثيف. أما اليوم فإنها أحد أروع المواقّع الآثارية، حيث تؤمّها جماعات من السواح المكسيكيين والأمريكيين، يأتون ليتأملوا باعجاب آثار عظمة ومجد المايا. لقد ساهم عشرات الرجال في ترميم المدينة، وفي اعادة بناء معابدها المهدمة وأهراماتها التي كانت العرائش تغطيها، ومرصدها، وملعب الكرة فيها حيث كان المايا يمارسون رياضة شعائرية، هي رياضة اللفيفة أو الكرة، وهي عبارة عن مزيج من كرة السلة ومن الهوكي الحاليتين. وسمحت جهود الحكومة المكسيكية ومجموعة كبيرة من العلماء بتحقيق العمل الذي كان تومبسون يحلم بانجازه، إنما الذي لم يكن ليستطيع إتمامه بمفرده. ويُظهر لنا اليوم المعبد القائم على الهرم الذي تسلّقه تومبسون ذات مساء في ضوء القمر، والذي رأى من أعلاه للمرة الأولى البئر المقدسة، واجهتان أعيد بناؤهما بشكل كامل، فيما تُركت الواجهتان الباقيتان كرمز للأصالة. وكان كل حجر أعيد بناؤه

قد وضع، ضمن حدود الامكان، في موضعه الأصلي، وينتصب المعبد اليوم مدهشاً وعريقاً، ورمزاً لكمال ماضي المايا.

وفي مكان غير بعيد عنه، يلاحظ الزائر «معبد المحاربين». وعلى الرغم من أنه كان مخصصاً للثعبان ذي الريش، إلاّ أن إيرل موريس Earl Morris، وكان مدير التنقيبات، سماه بهذا الاسم لكي لا يتم الخلط بينه وبين معبد كوكولكان، ولأن تمثيلات لمحاربين مسلحين بحراب حفرت بنقوش بارزة كانت تزين بعض دعائمه وأركانه الداخلية.



معبد المحاربين في شيشن إبتزا

لكننا مع الأسف لن نستطيع انقاذ كافة مدن الأدغال الميتة، مثل شيشن ـ إيتزا. فلقد فعل الزمن فعله المدمّرٍ بحيث أن بعث أو إحياء امبراطوريتين سيكون أمراً يستحيل تحقيقه. لكن بضعة أمثلة، مثل شيشن ـ إيتزا وكوبان وبالنك، تكفي لتثبت لنا عظمة معماريي وبنائي المايا. لم تكن أية صعوبة لتوقفهم. وبما أنهم لم يكونوا يعرفونٍ سرّ القوس ذي العقد، فقد كان عليهم أن يبنوا جدراناً عظيمة السماكة لكي تحمل السقوف. ولم تكن لديهم حيوانات للجر لتساعدهم في نقل الحجارةٍ الثقيلة، وكانوا يجهلون العجلة وكل ما يتعلق تقريباً بالميكانيك. لكنهم توصلوا مع ذلك إلى التغلب على كافة الصعوبات بقوة الارادة وبالمهارة.

كان المايا فنانين من الدرجة الأولى، ونحاتين موهوبين، وقد خلقوا حضارة من أكثر الحضارات أصالة. وهم لم يخترعوا فقط كتابة هيروغليفية، بل وأيضاً أسلوبين من الأرقام، أحدهما يشبه نظام العد الروماني، والآخر يشبه نظام العد العربي العشري. وقد مثلوا الصفر باشارة معينة، ووضعوا قاعدة للحساب واسعة النطاق. وكان علماؤهم الفلكيون قد حسبوا الوقت بدقةٍ كاملة، ولم يُسقِط تقويمهم حتى اختفائهم يوماً واحداً.

ولكن على الرغم من سحرهم، فقد اقترفوا الخطأ العظيم بابقائهم للشعب في الجهل، حاصرين العلم بطبقة مميزة هي طبقة الكهنة والنبلاء والملوك. آه لو لم يكن دييغو دولاندا قد أحرق جميع كتبهم!... أو لو أن أحداً يجد أخيراً أحد تلك الكتب التي نجح كهنة المايا دون شك باخفائها عن هيجان الغزاة المدمر.



إنٍ كل عالم بالأمريكياتٍ يحلمٍ بتحقيق هذا الاكتشاف يوماً، وكان تومبسون قريباً جداً من الحصول على هذه الفرصة. فقد أخبره هندي كان يتحدث معه أنه كان قد اكتشف في أحد الأيام آنية مختومة في قبر قديم. وفي حين كان يأمل أن تحتوي على الذهب أو على الجواهر، صدم لما أخرج منها ورقة عتيقة.

وعند كلمة «ورقـة» قفز تومبسون مذهولاً وطلب معلومات دقيقة من الهندي. وحدد هذا الأخير لقيته بالكلمات التالية: «كانت عبارة عن قطعة ورق مطوية، وقد رسم عليها كمية كبيرة من الاشارات الصغيرة باللونين الأحمر والأسود».

كان ذلك وصفاً كاملاً، على الرغم من بساطته، لأحد كتب المايا. عدد كبير من الاشارات التي تمثل وجوهاً، كلها مختلفة، والورقة ملونة على الوجهين، ومطوية على شكل مروحة اليد. وعندما استعلم تومبسون عن مصير الإناء، عرف أنه كان موجوداً في مسكن المكتشف، خلف المدفأة. وعرض فوراً على الهندي صفقة مغرية: الورقة مقابل حصان مُسرج يقدمه له. وانطلق الرجل فوراً إلى منزله، لكن دون جدوى. ذلك أن زوجته كانت قد استخدمت الورقة، أو رمتها (لم تُعرف الحقيقة أبداً)، ولم يكن قد تبقى سوى الإناء.

تلكم إحدى الأشياء المزعجة والمكدّرة التي يتعرض لها غالباً علماء الآثار. لكن ذلك لا يمنعهم من الرجاء والأمل. ومن يعلم، قد يأتي يوم يعثر فيه أحد المستكشفين المحظوظين على «حجر رشيد» المايا الأكثر كمالاً من كتاب دولاند. وقد يأتي يوم، توضح فيه مسألة الهجرة باتجاه يوكاتان. وقد يأتي يوم أخيراً، نعلم فيه من كان أولئك الشانيس Chanès، الذين علّموا المايا وقدموا على مراكب على شكل ثعابين؛ ومن كان البطل العظيم كوكولكان.



صفحة من إحدى مخطوطات المايا الثلاث التي حفظت من الحريق، وهي موجودة في المكتبة الوطنية في باريس

علماء الآثار يعيدون بناء تاريخ المايا

لقد حقق المايا قبل اكتشاف القارة الأمريكية تطوراً حضارياً وفكرياً وفنياً يضاهي ما أنجزته الحضارات في العالم القديم، مثل السومرية والفرعونية والإغريقية وغيرها. مع ذلك فقد مر «مصارعو الثيران» في القرن السادس عشر عند غزوهم للقارة الجديدة في جوار بعض أهم مراكز المايا دون أن يشكوا حتى بوجود حضارة عظيمة في هذه الأنحاء! لقد أشار مؤرخو هؤلاء الغزاة إلى وجود بعض قبائل المايا الخاضعين لبعض الملوك الذين لا أهمية سياسية لهم والذين كان من السهل تهميشهم. وبمقارنة ملوك المايا مع ملوك مكسيكا (المكسيك) في ذلك الحين، واتساع عاصمتهم تنوشتيتلان وعظمة امبراطوريتهم وغناها، كان ملوك المايا يبدون باهتين جداً، ذلك أن امبراطورية الأزتيك المكسيكية كانت في ذلك الحين في أوج عظمتها بينما كانت حضارة المايا في نهاية أفولها وكانت مدنها الكبرى قد هجرت منذ أكثر من خمسة قرون.

لم تُكشف آثار وأهمية حضارة المايا وجمالها للعالم إلا في القرن التاسع عشر مع أعمال ستيفنز كما رأينا

ومن تلاه. لكن أعمال التنقيب المنهجية الكبيرة في مواقع المايا لم تبدأ إلا في منتصف القرن العشرين في كل من الهندوراس وغواتيمالا والمكسيك. ويتابع اليوم علماء آثار من مختلف أنحاء العالم العمل في هذه المواقع بفضل تطور مناهجٍ السبر والتنقيب والاستكشاف الأبحاث الدقيقة جداً.

آثار المايا وصروحها

تتوزع آثار المايا على مساحة تصل إلى نحو ٣٢٥٠٠٠ كلم[٢]، في منطقة تتقاسمها عدة بلدان في أمريكا الوسطى، وهي المكسيك وغواتيمالا والسلفادور والهندوراس. وليس من السهل تحديد تاريخ لبداية حضارة المايا، ولا متى انتهت تماماً، في حينٍ يشير بعض الباحثين إلى أن تراثاً بسيطاً لا يزال حياً منها في بعض المناطق من هذه الدول. وتشير الأبحاث الحديثة إلى أن أقدم الآثار المعروفة لحضارة المايا تعود إلى نحو ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد حيث ظهر أقدم المزارعين على ساحل المحيط الهادئ. وقد تركوا لنا آنية فخارية مميزة. كما عثر على حجارة رحى لديهم مما يشير إلى أنهم كانوا يزرعون الذرة منذ ذلك الوقت. وعلى الرغم من ظهور

بعض الأمثلة التي تشير إلى تقدم فني (حجارة ضخمة منحوتة) لكن المايا لم يعرفوا خلال هذه الفترة المبكرة الكتابة ولا العمارة الحجرية. وكانوا يعيشون في قرى من أكواخ بسيطة.

إن الصرح النموذجي في كبرى مدن المايا هو معبد مغطى بقبة. وهو ليس بالضرورة بناء كبير، لكنه مهيأ في الأعلى بمصطبة عالية هرمية الشكل تشرف على الموقع. ومع أن قبة المعبد تكون عبارة عن سقف فيه فتحة (رصدية؟)، لكن القبة كانت مستخدمة في الكثير من الصروح الأخرى. وأهمها ما يسمى القصور. وربما كانت مساكن للأمراء أو مواضع للراحة أو للاجتماعات. ولا نعلم بالضبط حتى الآن وظيفة هذه الصروح الكبيرة. ولا يقل تميزاً عن هذه الأبنية تلك المجموعات من الإنشاءات الضخمة على شكل مسلة ـ مذبح. وهما عبارة عن حجرين ضخمين ، المسلة المتطاولة والمنشأة عمودياً، والمذبح الذي يكون عموماً على شكل بلاطة ضخمة موضوعة أمام المسلة. ويصل وزن بعضها إلى عدة أطنان. بعض هذه المسلات والمذابح منحوت بزخارف فنية لا مثيل لجمالها. ونجد عليها عموماً شكلاً بشرياً أو أكثر على أحد جوانبها وإشارات هيروغليفية على الجوانب الأخرى.

المخطوطات

كشفت مخطوطات المايا عن كتابة هيروغليفية مميزة. لكننا لا نزال نجهل أصول هذه الكتابة. وقد وجدت بعض بوادرها ربما على سواحل خليج المكسيك في منطقة حضارة «الأولميك»، وهي حضارة سبقت حضارة المايا، كما وفي مناطق أخرى. وتتألف مخطوطات المايا من ورق ملصق طوله عدة أمتار وقد طوي بشكل مروحي. وكان هذا الورق مصنوعاً من ألياف نبات يسمى الكوبو. ومع الأسف فقد اختفت معظم النصوص التي ترجع إلى ما قبل وصول الإسبان بعد أن حرقها الأسقف الإسباني دييغو دو لاندا. ولم يبق منها سوى مخطوط درسدن في ألمانيا، وهو مخطوط فلكي، ومخطوط مدريد في أسبانيا، وهو كتاب في التنجيم، والمخطوط المحفوظ في المكتبة الوطنية في باريس، ويبدو أنه يشتمل على نصوص شعائرية.

غير أن ما يعوض نقص المخطوطات بالنسبة للعلماء وجود النقوش والكتابات الغزيرة على الحجارة أو الخشب. وحتى الآن لم يمكن فك رموز كتابة المايا بالكامل. لكن أمكن معرفة الرموز الرقمية ورموز

التقويم. كذلك بات العلماء يعرفون مختلف الإشارات التي تشير إلى الآلهة وإلى شعارات المدن. غير أن معنى معظم الرموز الهيروغليفية الأخرى لا تزال مجهولة.



مخطوطة مدريد

أرقام المايا

توصل المايا كما رأينا إلى نظام عد «عشريني» وليس عشري. وكان لديهم رموز للأرقام من ١ حتى ١٩ . لكن الأعمال الحسابية لم تكن تتم بواسطة هذه الإشارات

الهيروغليفية، بل بواسطة إشارات بسيطة هي النقطة والخط الصغير والدائرة البيضوية (أو القوقعة)، حيث النقطة تساوي الواحد، والخط يساوي خمسة، والقوقعة تساوي الصفر. وهذا يعني أن المايا عرفوا الصفر بشكل مستقل عن العالم القديم.

تقويم المايا

تحدثنا عن تقويم المايا كنظام دقيق اعتمد الرصد القمري والشمسي كما وكوكب الزهرة. ونشير أيضاً إلى أن النظام العشريني في الترقيم كان يطبق أيضاً عند المايا على التقويم. فوحدة الزمن هو اليوم، ويتألف الشهر من عشرين يوماً. وتقارب السنة الشمسية سنة المايا المؤلفة من ثمانية عشر شهراً. لكن تقويم المايا لا يتوقف عند هذا الحد، حيث هناك واحدات زمنية أكثر من سنة تقوم على مضاعفة السنة عشرين مرة، والاستمرار بالمضاعفة في وحدات زمنية كبرى عشرين مرة ثم عشرين مرة وهكذا دواليك. وكان لكل من هذه الوحدات الزمنية أسماء خاصة وأشكال هيروغليفية خاصة تمثلها. ووفق التاريخ الأسطوري تشير كتابات المايا إلى أن بداية عصر المايا يرجع إلى ٣١١٣ قبل الميلاد.

والمرصد عند المايا هو مجموعة من الأهرامات المتوضعة وفق زوايا محسوبة بدقة، كما في أواكساكتن. أو يمكن أن يكون المرصد عبارة عن برج يمكن منه القيام بقياسات، ونجد البرج المربع في بالنك، شياباس، والبرج الدائريٍ في شيشن، يوكاتان. وكان هذا البرج الأخير مزوداً بغرف مقببة وبنوافذ دقيقة موجهة نحو اتجاهات فلكية محددة، مثل الجنوب والغرب، ونقطة مغيب القمر أو نقاط الاعتدالين أو الانقلابين الشمسيين.



أحد الرسومات القديمة التي تصور تقويم المايا

مرحلة ازدهار حضارة المايا

تحدّد الفترة الممتدة بين أقدم وأحدث تاريخين (٢٩٢ و ٨٨٩) ما يسميه الآثاريون العصور الكلاسيكية للمايا. ويتكرر خلال هذه المرحلة ذكر تاريخ عام ٧٩٠ كذروة لحضارة المايا وازدهارها. ونذكر بين أهم المدن من العصر الكلاسيكي في غواتيمالا، تيكال وأواكساكتن وسيبال وبيدراس نغراس، وكيريغا، وفي الهندوراس مدينة كوبان، وفي المكسيك مدن بالنك وياكسشيلان وبونامباك وأوكسمال وشيشن إيتزا. وعلى الرغم من أن كافة هذه المدن تشتمل على الأنماط نفسها من الصروح لكننا لا نجد الأسلوب المعماري نفسه متكرراً أبداً فيها. وسوف نلقي بعض الضوء فيما يلي على بعض أهم هذه المدن، وهي تيكال وكوبان وبالنك وأوكسمال.

تيكال

هي أكبر جميع هذه المدن (تصل مساحتها إلى نحو عشرة كيلومترات مربعة). وتتميز بعمارتها الضخمة ومعابدها الهرمية، وهي أعلى الأهرامات في العمارة

الأمريكية القديمة على الإطلاق. ويصل ارتفاع أحدها إلى سبعين متراً. وقد تم تعداد أكثر من ثلاثة آلاف بنية معمارية صغيرة وكبيرة في الموقع، بينها العديد من المعابد والقصور القائمة على ثلاث تلات. وعلى التلة المركزية يوجد قصر من خمس طبقات، فريد من نوعه في منطقة المايا. وكذلك تتميز تيكال بملعب فيه مدرجات كانت تجري فيه لعبة الكرة أو اللفيفة.



موقع تيكال في غواتيمالا

كوبان

تختلف كوبان عن تيكال بأن صروحها ليست ضخمة، حيث تتوضع بسلام على تلة وتتألق بزخارفها الرائعة. ويبدو أن كوبان ألهمت فنانين عبر نحو ثلاثة قرون حيث وجدت فيها عدة مدارس في النحت بشكل خاص. ولا شك أن نحاتي كوبان كانوا يعملون بشكل متوافق مع المعماريين بحيث استطاعوا العمل في الكتل الحجرية نفسها التي كان يتم البناء بها.



ونجد في كوبان أيضاً مدرجاً للعبة اللفيفة التي لم تكن خاصة بالمايا وحدهم بل نجد ملاعبها في كامل المكسيك الحالية. وإن لم نكن نعرف تفاصيل هذه اللعبة، لكن يبدو أن حلقات دائرية في الجدران العمودية كانت مخصصة لمرور الكرة - اللفيفة عبرها لتسجيل أهداف! أما في الملاعب المايا فقد استبدلت الحلقة بفجوة ذات إطار بارز يسمى ماركادور.

بالنك

هي مدينة أخرى رائعة، أرستقراطية الطابع وتشتهر بدقة منحوتاتها. عمارة الأهرامات فيها متواضعة، لكن معابدها ذات زخرفة فائقة الرهافة. وفي بالنك يوجد المدفن تحت الأرضي الوحيد في أمريكا القديمة، وهو مبنيّ تحت أحد الأهرامات، وأدى اكتشافه في عام ١٩٥٢ إلى إعادة النظر في الرأي القائل إن الهرمٍ في الحضارة الأمريكية القديمة ليس صرحاً جنائزياً بل مجرد قاعدة لمعبد مرتفع.

وقد احتوى المدفن عند اكتشافه على مجموعة رائعة من المنحوتات بينها أكبر بلاطة منحوتة حيث يصل طولها إلى ٣,٨٠ م وعرضها إلى ٢,٢٠ م كانت

تغطي المدفن. وقد نحت عليها بدقة متناهية شاب يجلس على القناع الكبير الـذي يرمز إلى الأرض، وترتفع عيناه نحو تشكيل صليبي الشكل يعلوه طير الكتزال الذي يرمز إلى الحياة. أما داخل المدفن فكان قناع من الفيسفساء والعديد من قطع الجواهر من اليشب تغطي بقايا الشخص الذي كان يرقد هنا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً. وقد عثر العلماء بين العديد من التقدمات من الآنية والقطع الثمينة على رأسين جصيين يمثلاً نمط المايا مع الشعر المقصوص والمرفوع بشكل عرف!

وكان درج مبني داخل الهرم يقود من المدفن باتجاه المعبد الذي يسمى معبد الكتابات، بسبب ثلاثة ألواح كبيرة من المنحوتات الهيروغليفية تزين جدرانه الداخلية. وقد وجدت مثل هذه الألواح في ثلاثة معابد أخرى وفي أحد بيوت القصر.

ونجد في القصر في بالنك منحوتات جصية، حيث وصل ازدهار فن المنحوتات الجصية إلى أوجه. وأحد المشاهد الحزينة يشير إلى ابنة أحد العبيد، وهي تميل برأسها إذعانا كما يعتقد بعض العلماء، في حين أن مشاهد أخرى باذخة أو أكثر لطفاً نجدها على الأعمدة

الواقعة خارج القصر. ولا شك أن بالنك وصلت بفن النحت إلى منتهاه، لكنها لم تبن المسلات المنحوتة حيث كان التأريخ فيها يسجل على الألواح أو العضادات. بالمقابل تتميز بالنك بالبرج المربع من ثلاث طبقات في باحة القصر، وهو الوحيد من نوعه في منطقة المايا. أما ملعب لعبة اللفيفة فهو مدرج بسيط ومتواضع جداً.



البرج المرصد الشهير المربع الشكل في بالنك

أوكسمال

أما خرائب أوكسمال فهي الأكثر تجانساً وتوازناً من أسلوب انتشر في المنطقة الشمالية من حضارة المايا. ويتميز الموقع بتراتب المصاطب التي بنيت عليها المباني الرئيسية، وبمنحوتاته الضخمة. وتمتد واجهة قصر الحاكم في أوكسمالٍ على طول ٩٨ متراً، وقد زينت بزخارف جميلة جداً بعضها هندسي الشكل، في حين كان يعلو الباب الرئيسي نحت يمثل شخصاً يتميز بعرفه الخاص بالمايا.



هرم الساحر، في أوكسمال في يوكاتان

نهاية حضارة المايا

لقد تم هجر كامل المنطقة الوسطى من أراضي حضارة المايا مع نهاية القرن التاسع الميلادي، حيث كانت توجد مدن تيكال وكوبان وبالنك المذكورة أعلاه. ولا يزال موضوع انهيار حضارة المايا قيد نقاش وجدالات بين العلماء. ويعيده بعضهم إلى استنفاذ للأراضي، وآخرون إلى جائحات، بينما يشير بعضهم إلى تغير في المناخ حصل في تلك المرحلة. وقدّم عالم الآثار إريك تومبسون التفسير الأكثر قبولاً حتى الآن حيث يعتقد أن تماثيل بعض القادة التي شوهت عمداً تشير إلى أن هذه المدن كانت مسرحاً لثورات عنيفة قام بها الفلاحون. ولا شك أن الناس البسطاء استمروا في العيش حول مراكز المدن الكبرى، لكن القادة المدنيين والعسكريين كما ورجال الكهنوت والحرفيين اختفوا وهاجروا من المنطقة، مما أدى إلى تصدع الصروح التي لم تجد من يقوم بصيانتها تحت ضغط امتداد النبات الشديد الكثافة في المنطقة.

أما في مناطق أوكسمال والشمال عموماً فقد استمرت حضارة المايا لفترة أطول، ويشير أحد التواريخ المسجلة

إلى نهاية القرن العاشر عندما اجتاح المكسيكيون هذه المنطقة.

عصر جديد في حضارة المايا

كان هؤلاء القادمون الجدد هم التولتيك، وهم من المحاربين التابعين لقائد سياسي وديني هو توبيلتزين كتزالكوتال. وقد فرضوا على المنطقة نظام حكمهم وأسلوبهم المعماري كما وديانتهم، ومعهم بدأ عصر جديد يسمى ما بعد الكلاسيكي في حضارة المايا.

وقد اختاروا عاصمة لهم مدينة شيشن التي كان المايا قد أسسوها في العصر الكلاسيكي، وأضافوا إليها أبنية جديدة مستخدمين اليد العاملة من شعب المايا. ونجم عن ذلك أسلوب معماريٍ لم يكن تولتيك خالصاً إنما لم يكن أسلوب المايا أيضاً. وقد تم تأليه قائدهم كتزالكوتال ويعني اسمه «الثعبان ذو الريش». لكن اسمه ترجم إلى المايا بـ «كوكولكان» كما سبق ورأينا، وهو الاسم الذي نجده في كافة زخارف شيشن بالأسلوب الخليط بين المايا والتولتيك. لكن هذا لم يؤد إلى تنحية إله المايا القديم شاك، إله المطر. وقد تم تمَثيل الإلهين على التناوب على جدار معبد المحاربين حيث شكلت

الزخارف نسخة مطابقة لمعبد مدينة تولا، العاصمة القديمة للمحاربين وقائدهم كتزالكوتال.



جانب من جدار في ملعب الكرة في شيشن إيتزا وعليه زخارف منحوتة بدقة كبيرة

ولا شك أن المعبد ـ الهرم، المعروف بالقلعة (كاستيلو) هو أحد أجمل إنجازات عمارة المايا ـ التولتيك. ويرتفع الهرم نحو أربعة وعشرين متراً، مع درج في كل جهة منه، ويبدأ أحدها عند مستوى الأرض برأس ثعبان ذي ريش تولتيك. وقد اكتشف أثناء تقنيب الكاستيلو هرم

آخر داخله مع معبده. وقد بنى التولتيك في شيشن أكبر وأجمل ملاعب الكرة اللفيفة. ويصل طوله إلى ١٦٦ متراً وعرضه إلى ٥٠,٦٨ متراً.

وقد استمر التولتيك في شيشن حتى عام ١٢٢٤ على الأرجح. وحل محلهم الإيتزا، لكن التأثير المكسيكي للتولتيك استمر في يوكاتان حتى الغزو الأسباني.

السياسة والدين

إن التنظيم الاجتماعي والسياسي للمايا، كما وديانتهم لا تزال مجهولة بالنسبة لنا. والوثيقة الأساسية لدراسة هذه المسائل هو الكتيب الذي وضعه دييغو دو لاندا الذي وضع ملاحظاته حول ما شاهده في مجتمع المايا نفسه بعيد وصول الإسبان. لكن المايا في تلك المرحلة كانوا قد تراجعوا كثيراً مع أن عاداتهم حفظت شيئاً من عراقتهم.

كان يتم الحديث في بداية الدراسات حول المايا عن امبراطورية كبرى في منقطة يوكاتان. لكننا نعلم اليوم أن المايا لم يتحدوا يوماً وكانوا عبارة عن مدن ـ دول مستقلة عن بعضها بعضاً. وعلى رأس كل مدينة كان يوجد «الرجل الصحيح». وكان يمثل القائد السياسي

والقاضي الأعلى والرئيس الديني في آن معاً. وكان أتباعه يقدمون له الضرائب ويعملون له. وكان هذا اللقب متوارثاً، وكان يمثل جالساً على عرشه كما في الكثير من الرسومات الجدارية.

وكان يساعد هذا الحاكم مستشارون يكونون أحياناً قادة محليين. وكانوا يقودون الجيش في حالة الحرب، ويلعبون دوراً فعالاً في الاحتفالات الشعائرية. وكان هؤلاء مع أقربائهم وحلفائهم من المجتمع يشكلون الطبقة العليا في المجتمع، أي نبلاء المايا. ويشغلون بالتالي المناصب الإدارية ويجبون الضرائب للحاكم.

أما رجال الدين فكانوا أيضاً يشكلون طبقة كثيرة العدد في المجتمع. وكان الكهنوت ينتقل من الأب إلى الابن. وكانت مسؤولياتهم تشمل مجالات عديدة مثل الكتابة والتسلسل الزمني والتاريخ المقدس والمعارف اليومية المقدسة والدنيوية والطب وتنظيم الاحتفالات والإشراف على تنشئة الكهنة الجدد. وكان ثمة كاهن معين يسمى شيلام مكلف بشكل خاص بتلقي رسائل وإلهام الآلهة. ولهذا كان يدخل في حالة انخطاف (بمساعدة مواد مهلوسة على الأرجح) وكان مجتمع الكهنة يقوم عندها بتفسير هلوساته وكلماته. وأخيراً

كان هناك أيضاً كاهن خاص بتقديم الأضاحي. وكان مجتمع الكهنوت يخضع لالتزمات شديدة مثل الصيام والتقشف وغيرها.

كان الشعب يأتي في أسفل الهرم الاجتماعي. وكان معظم الناس من المزارعين البسطاء الذين ينتجون ما يكفيهم، لكن كان لا بد لهم من اقتطاع جزء كبير من محصولهم الخاص ليقدموه للطبقات العليا غير المنتجة! ولم يكن العمال من المايا يملكون أدوات سوى الحجرية منها أو الخشبية. كما لم يعرفوا العربة ولا أية وسيلة للنقل. ولهذا لا يزال من الصعب تخيل الجهود الكبيرة التي كانت تطلب منهم لإنجاز أعمال ضخمة مثل أهرامات تيكال!

أما العبيد فكانوا يشكلون طبقة لوحدهم. فكل من يخترق القانون أو العرف العام كان يحكم عليه بأن يصبح عبداً. لكن العبد كان يستطيع التحرر بالقيام بحد معين من الأعمال. وكان المحاربون الذين يأتون بأسرى يحتفظون بهم كعبيد أو يقدمونهم للكهنة كأضاحي شعائرية، أو كانوا يبيعونهم كسلع عادية.

أما الديانة التي طبعت شعب المايا خلال حضارتهم فلا تزال غير معروفة لنا بشكل واضح. ونعلم أنه كان يوجد وفقها في البدء خالق، هو هناب، قدم ابنه لشعب المايا

هدية هي الكتابة، والمخطوطات والتقويم. وكان غالباً ما يقرن بالإله الشمس كينش آهو. لكن هذه الآلهة كانت آلهة بعيدة لا يمكن للشعب أن يصل إليها، وكان الشعب يتواصل أكثر مع إله المطر. وكان من المهم أيضاً تقديم الاحترام لكوكولكان إله الريح، وخاصة إله الذرة، . أما آه بوش، إله الموت فكان غالباً ما يرافق إله الحرب إك شواك. وكان مجمع أرباب المايا يضم عدداً لا يحصى من الآلهة الأخرى التي تخص كافة ظواهر الطبيعة.



إله المطر شاكمول، وقد وجدت منحوتات كثيرة له وكلها يحمل فيها صحناً على صدره ليتلقى قلب المضحى بهم في سبيل إنزال المطر

المايا اليوم

لقد اندمج الهنود مع الإسبان منذ القرن السادس عشر. ولم يترك المايا منهم أراضيهم الأصلية. ووفق إحصائيات عام ١٩٨٤ كان لا يزال يوجد في غواتيمالا وولايتي شياباس ويوكاتان في المكسيك نحو ثلاثة ملايين ونصف مواطن غواتيمالي أو مكسيكي يتكلمون لغة المايا، في لهجات متعددة. وقد تحول جميع المايا منذ القرن السادس عشر إلى المسيحية، لكن بعض العادات الشعبية لا تزال موجودة على شكل علوم باطنية وسحر متناغم مع الطبيعة. وتختار حتى الآن القرى الأهلية من المايا شامانا أو ساحراً يلعب دور الكاهن الأكبر القديم. ومن أهم الاحتفالات التي يقوم بها احتفال «صلاة المطر» بعد أشهر من الجفاف. وهو بعد أن يتضرع إلى الإله شاك يعود ليتضرع للعذراء مريم لكي «تريق دموعها» فتنزل المطر!

المراجع

Alain Musset et Annie-Claude Martin, Avant l'amérique, les mayas et les aztèques; peuples du passé, Paris, Editions Nathan, 1992.

Anne Terry White, les grandes découvertes de l'archéologie, Marabout Université, Paris 1963.

Encyclopaedia Universalis, Maya, 2009.

Guy Gugliotta, Les Mayas de la Gloire à la Ruine, National Geographic France no.95, août 2007.

Kay Warren, Indigenous Movements and Their Critics: Pan-Maya Activism in Guatemala, Princeton, Princeton University Press, 1998

Larousse, Aimer le Mexique, monde et voyages, Paris, 1996.

Mercedes de la Garza, Les Mayas: 3000 ans de civilisation, Italia, Casa Editrice Bonechi, 1995.

Mésoamérique (Mexique-Honduras-Belize), Paris, Clio ٢ème édition, 1991

Nikolai Grube, Maya: Divine Kings of the Rain Forest, Cologne, Könemann Press, 2006, « Maya Today - From Indios Deprived of Rights to the Maya Movement », p. 417-425

Susana Vogel, Les Mayas: Histoire, art et archéologie, Monclem Ediciones, Mexico, 1995.

Wilson G. Turner, Mqya designs, USA, Dover-design library, 1985, poche.

صدر من السلسلة

نحن جزء من هذا الكون	فايز فوق العادة
دمشق	محمد قرانيا
الأشرعة الحمراء	ترجمة: فيروز نيوف
مملكة ماري	ترجمة: قاسم طوير
مختارات من اسامة	
القدس	د. هشام الحلاق
الذرة	حسن بلال
العلم يدهشنا	فايز فوق العادة
مملكة إيبلا	أنطوانيت القس
البيئة: الطبيعة والإنسان	طه الزوزو
قصة الكون والحياة والإنسان	موسى ديب الخوري
ربيع كاذب	عبد اللّٰه عبد
صفحات من تاريخ الموسيقا	محمد المصري
الأمير الصغير	ترجمة أنطوانيت القس
قصة اختراع الأرقام	موسى ديب الخوري
الصوت والزمن	د. غزوان زركلي
حشرات في بيتك وحديقتك	هنادي زرقة
طريق الحرير	د. ريم منصور الأطرش
الحاسوب	أويس الشريف

فلزات (سيليكون/كوارتز/حرير صناعي	د. محمد عبود
الثقوب الكونية السوداء	فايز فوق العادة
الفسيفساء	موسى ديب الخوري
فن النحت في العصر القديم	د. تغريد شعبان
التلوث النفطي	د. محمد عبود
المحميات الطبيعية	هنادي زرقة
مختارات من حكايات إيسوب	رسوم ضحى الخطيب
حيوانات المروج والغابات	محمد مروان مراد
قصة اللاسلكي	جهاد سلامة الأشقر
أوغاريت	موسى ديب الخوري
ممالك سورية القديمة	د. تغريد شعبان
التخدير والإنعاش عبر التاريخ	نزار مصطفى كحلة
أساطير يونانية	أنطوانيت القس
تاريخ الرسم	دلدار فلمز
النفايات الصلبة	د. عبير عيسى
الفينيقيون وأساطيرهم	محمد دنيا
الرياضيات علم وفن	فايز فوق العادة
الجراثيم والبيئة	د. سيراؤوس محمد
حكايات الأخوين غريم	ترجمة: د. نبيل الحفار
النانو وتطبيقاته	حسن عز الدين بلال
غزو الفضاء	محمد دنيا
على دروب القرى المنسية	موسى ديب الخوري

أعلام الكشف والاختراع	محمد مروان مراد
قرطاج	د. هشام سعيد الحلاق
أساطير من اليابان	محمد دنيا
أوليات علم الفلك	فايز فوق العادة
نشوء الحياة	هيسة جادو أبو سعيد